

مجموعة قصصية
أسرار ولكن
المثقفون العرب للنشر والتوزيع
مجموعة قصصية
أسرار ولكن
المثقفون العرب للنشر والتوزيع

أسرار ولكن

عنوان الكتاب: أسرار ولكن
الموضوع: مجموعة قصصية
التأليف: رامي فخري (وحدة مؤلفين)
مراجعة لغوية: فريق أسرار الكتب
الإخراج الفنّي: عمرو سالم سواح
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
رقم الإيداع: ..... /٢٠١٩
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٤٣-٥٦-٧
الناشر: دار (المثقفون العرب) للنشر والتوزيع

Facebook Page: المثقفون العرب للنشر والتوزيع
Email:elmosakafonalarab@gmail.com
Tel: 00201013029749

شيرين القاضي



أسرار ولكن

مجموعة مؤلفين



منذ بداية نشأة مجموعة أسرار الكتب على موقع التواصل الاجتماعى وتحملنا على عاتقنا مهمة ثقيلة وهى تقديم جيل جديد من الكتاب ومد يد العون لكل من أراد .

وهذا العمل هو باكورة أعمال أعضاء مجموعتنا .

هى محاولة بسيطة مننا لمساعدة بعض الكتاب الجدد وهى شهادة ميلاد لجيل جديد يحمل بيديه الراية ويستمر فى دفع عجلة الأدب إلى الأمام متخذا من السابقين قدوة ومثال يحتذى به .

وفاء حامد

(ناسكٌ وراهبةٌ وأرضٌ مشتركة)

الناسك

هل هناك قدسية خفية في الحانات حيث يعاقر أرباب الخمر ممن هم مثلي محبوبتهم الأولى..؟

سؤال يبدو هزليًا، لكن إن فكرنا فيه قليلًا سنجد الكثير مما هو مشترك بين أثر الخمر وحالات التجلي والكشف التي يتغنى بها المغرقون في عوالم القرب ممن يتعبدون له.. أليس كذلك..؟

غشاوة على العقل، العين ترى أبعد من الملموس، اللسان ينطلق بالكثير مما لا يمكن قوله في عوالمنا الواقعية، حالة النشوة والبعد عن كل ما يُنغّص الحياة بلا قيد أو شرط، مع غياب كامل لكل أنواع الذكريات، وخلق حاضر جديد ولو لبعض الوقت.

قد تؤذي الخمر المعدة بنفس القدر الذي قد يمسخ به الدينُ العقلَ عند عدم التعقل في خوض تفاصيله.. لذلك سأكون حريصًا على صحة معدتي ولن أصل إلى كامل اللذة التي تُرجى من الخمر.. سأتركُ بعض الفراغ للذة أخرى تتعلق بتلك الحسناء باهرة الجمال التي تتكئ على البار، وتوزع نظراتٍ مستهزئة على الجميع وهي تتناول كأسها الأول الذي لم تنته منه مع وصولي إلى الكأس العاشر الذي قررت أن يكون الأخير وحدي.. أحتاج بعض المجهود لأنهض، ودافعٌ كجميلتنا لأتجه إلى البار وأجلس إلى جوارها مبتسمًا بسماجة، وقائلًا بسماجة أكثر:

- أهلًا.. لماذا تشربين وحدك..؟ المكان هنا لا يقبل الوحدة..!

الراهبة

أحب تلك النظرات الجائعة التي تتكاثر من حولي.. أكاد أتغذى عليها وأهضمها بسرعة ثم أخرج فضلاتها نظرات اِحتقار تتوزع على الجميع بالتساوي.. الحانة وسط رائع لوجبة شهية من النظرات المتلصصة، وخلاص مذهل لكم اِحتقار أَحمله للعالم، وأُخرجه على عينةٍ منتقاةٍ من حثالته.. بالإضافة أن الخمر التي تُقدّم هنا رائعة..

انتقيت ثوبًا مميزًا لزيارتي الأسبوعية.. لا أحبُ الكشف السافر، لكنني أعشق الكشف المتدرج الذي يُغري الناظر بالمجهول الذي لا يراه. نوع من إضافة التوابل إلى الوجبة التي أتناولها ليس أكثر.. توابل من نوعية فتحة الصدر التي تتوقف عند نقطة حرجة وتشي بثمرة مكتملة النضج، والتنورة الطويلة الضيقة التي تتوسطها فتحة تعتلي الركبة ببضعة سنتيمترات..

إشاراتي تشي بكثير من الخيالات التي تذهب بعقول أعتى الرجال بلا اِستثناء، وثمار جنة تتوارى خلف أوراق شجر كثيفة تَظهر بعض تفاصيلها مع كل هبة ريح، وهبات ريحي كان حركات مدروسة ولفتات هادئة وصلت بالبعض إلى حدود الإغماء كما أرى..

النظرات المُحتَقِرةُ تتصاعد إلى ما هو أقسى عندما يتجاوز أمثال هذا الرجل الذي ظل يحدق بي قرابة الربع ساعة محتسيًا خمره، الرجل حمل كأسه فجأة وكأنما ينتزع نفسه من توتره وخجله الخفي الذي لاحظته في عينيه عندما اِقترب..

جزء من ذلك الرجل - وسيم الملامح - يرفض وجوده هنا، لكن سلوكه تقليدي.. سلوك تعودت عليه وحفظت رد فعله.. وهو متسق مع تشبيهي الأول عن فقرة إخراج الفضلات التي استمتع بها بقدر متساوٍ مع كل نشاطاتي هنا.. إخراج عنيف في وجهه بعد وجبة مبالغ في دسامة سخافتها..

الراهب

"خمسمائة وسبعة عشر جنيهًا وخمسة وستون قرشًا" كان أول مرتب تقاضيته منذ سبعة عشر عامًا في عملي الأول. أذكر وقوفي في طابور تلقى المرتبات في المبنى الملحق بالمبنى الرئيسي للشركة الحكومية التي عملت بها لثلاث سنوات مع مجموعة من العمال، وبستاني حديقة يعمل في المؤسسة منذ ثلاثين عامًا، ولم أره في الحديقة ولو لمرة واحدة حتى توفي في نهاية عامي الأول هناك.. البستاني يبتسم لي بحماسة مبالغ فيها و يقول ضاغطًا على حروفه بحماسة أكثر أننا هنا لـ "نقفش" أي ننال مرتباتنا..

ما الجديد في الأمر..؟

الجديد أنني عرضت الآن على تلك الفاتنة مرتب شهر كامل – منذ سبعة عشر عامًا - لقضاء ليلة واحدة فقط معي..

أعيش وحيدًا منذ اِنفصالي عن زوجتي السابقة، الثانية أو الثالثة.. لا أذكر لأنهما تداخلا في فترتيهما واجتمعا على ذمتي لبعض الوقت، حتى اِكتشفت الثانية وجود الثالثة ثم اِكتشف الثالثة أن لها سابقة، و اِكتشفا في ذات الوقت تقريبًا وجود ثلاث علاقات أخرى متزامنة مع وجودهما، فحدث الاِنفصال الذي لا أذكر تحديدًا من نالته منهن أولًا. المهم.. أن لدي يوم في الأسبوع أتخلص فيه من ضغط العمل والذكريات المسمومة باِستضافة أمثال تلك الجميلة، وهو للصدفة يوافق اليوم.

نظراتها لا تشي بأي شئ، رغم أن نظرات من يمتهنَّ هذا العمل يسهل قرائتها.. ذلك الإغواء الرخيص المبتذل الذي يحملنه في العادة يعبر عن نفسه بكل قوة.. نظرات فاتنتنا لم تحو إغواءً من أي نوع.. اِحتقار ربما، اِشمئزاز أو قد يكون خوف مبتدئين.. ربما لا تمتهن هذه المهنة من الأصل.

اِستمتاعٌ خفيٌ لاحظته في ملامحها أيضًا، اِستمتاع زاد بشك هستيري عندما صرخت

وقت أن مِلتُ على أذنها وعرضت الخمسمائة جنيه مقابل ليلتنا:

- عندما نَهضتَ من هناك ماشيًا خلف نداء عضوك - أيها الحقير - اِخترت الشخص الخطأ، جلوسي هنا لمشاهدة أمثالك من الحيوانات التي تهرول خلف غرائزها لا يعني أنني أحد أدوات إرضاء تلك الغرائز.. عد إلى مكانك ولا تحاول تعقيد الأمور على نفسك و إلا لاِنتهى الأمر بك بلا شئ تلبي ندائه..

هو الرفض إذا..!

لماذا يستخدمن تلك الجمل الطويلة للرد على عرض بسيط..؟ يكفي أن تقول لي لا، فهي ليست بحاجة لتثبت رهبانيتها لأننا أصلًا في حانة..

الراهبة

توقعت الجملة بشكل أقل مباشرة. لم يحيني، لم يبتسم، لم يدعُني لشراب.. قرابة الساعة في التأمل المتواصل لجسدي انتهت بعرض أن أرافقه مقابل خمسمائة جنيه في الليلة.. ربما خاض حوارًا ما معي في ذهنه تحت تأثير الخمر الذي تفوح رائحته من فمه خيَّل له أنني مستعدة.. عامة لقد نال ما يستحق.

الناسك

لا أحد يحكم على إنسان من موقف واحد.. و ليس بينى وبينها إلا موقف واحد فقط، أحتاج إلى مجموعة مواقف تتيح لي حكمًا موضوعيًا على صاحبة الأهداب الحادة كالسيوف.. هذه الفتاة هي التحدي الأكبر لتلك الليلة التي عبث فيها جمالها وعطرها الشبيه بما تطلقه الذبابة لجذب الذكور ببقايا العقل الذي أحمل، وتكتلات الهرمونات التي حلت الآن مكان بقايا العقل المذكورة.

لا يمكن الحكم على شخص إلا بمجموعة من المواقف، و يكون الحكم أكثر موضوعية لو كان الحكم بناءً على موقف واحد متكرر والموقف سيكون عرضًا آخر

بضعف السعر.

الراهبة..

ورد فعل آخر لا يقل قسوة على السابق، مع كأس من الخمر في وجه ذلك الحيوان الثائر.. سأضيف ثمن تلك الكأس إلى تكلفة متعتي عند التنكيل بأمثاله..

الناسك

أنا أكره دبي، أكره مبانيها الشاهقة، وطبيعتها البلاستيكية القاسية التي تصيب القلب بالاِنقباض، وذلك اللغز الذي تعرضت له في العام الماضي عندما كنت أمارس هواية الصيد الليلي فقابلت تلك الحسناء الأوزبكية التي أخبرتني أنها تتقاضى ألفا درهم إماراتي في الساعة الواحدة..

بشكل مباشر بدون لف أو دوران، ودون إضاعة لحظة واحدة، لاَطَفْتُها فعرضت ساعة معها مقابل ما يقرب من عشرة ألآف جنية، ورفضْتُ طبعًا.. فقط لأنني لم أكن أملك ذلك المبلغ آنذاك..

اللغز الذي يؤرقني حتى الآن هو: ماذا كانت ستقدم مقابل كل ذلك المبلغ..؟

الهرمونات تعشق المجهول، وعندما يتعلق الأمر برجالٍ مثلي وهبوا أعضائهم للتجارب وهرومانتهم للتقلبات البركانية مع مغامرات متعددة، فالمجهول هو التحدي الأكبر. المجهول قد يغطي على جمال الوجه مقابل الرغبة في اِستكشاف جسد غامض لا تفهمه، قد تغطي رائحة عطر وتمايل مدروس يظهر وعودًا بما لم تره عين على تعقل أي شخص اِختار أن يكون مثلي.. سأعرض عليها العشرة ألآف و لنر هل سترفض راهبتنا المصونة التي أتت لتتعبد في حانة نصف مرتبي الذي كنت أتقاضاه منذ خمس سنوات..

"يُختبر إخلاص الرجل عندما يملك كل شئ.." حكمة بلهاء قرأتها يومًا على صفحات التواصل مرفقة بصورة رئيس أمريكي سابق وزوجته.. أنا أملك كل شئ، ولست مضطرًا

لأُخلص لأي شخص.. في هذه الحالة إما أن أهب حياتي للبذل غير المشروط أو للعشق الممتزج باللذة..

أنا منحتها مناصفة لكلاهما..

الراهبة

يكفي هذا القدر من الوقت والإثارة على البار.. لازال هناك ساعة في جدول يومي أستطيع الاستمتاع بمزيد من الاسترخاء، أو الإثارة إن قرر صاحبنا مواصلة مفاوضاته معي لقضاء ليلة معه في مكان ما.. المرة القادمة أخطط لركلة تُنهي القضية عند حد ذلك المبلغ التافه الذي يتحدث عنه..

الناسك

كوب الخمر الذي تلقيته في وجهي كان نهاية مرحلة "الحرث" و هي المرحلة الأولى في عرفي للتفاوض على مشهد بورنو متأجج.. "الوضوح" أولا.. فإن فشل، انتقلت لمرحلة الأرض المشتركة..

نحن نملك بالفعل أرضًا جغرافية مشتركة وهي تلك الحانة، وأخرى مزاجية وهي الخمر، ونحتاج للحركة إلى مستوى آخر من الأرض المشتركة في طريقنا إلى الفراش المشترك.. أنا أملك في رأسي عرضًا يصلح كأرض مشتركة نبدأ منها. عرضٌ الحصول على المجهول وجعل الخبر الذي يساوي مالًا مجاني..

عرض سألقيه لمرة واحدة..

انتقلَت إلى طاولة عوضًا عن البار، وهذا أفضل.. سأتركها لبضع دقائق أُشغل نفسي فيها بالإعجاب بِاتساقي الغير مسبوق مع نفسي في حالة السكر وحالة اليقظة.. في كلتا الحالتين أنا الباحث أبدًا عن أرض مشتركة تصلح للاِنطلاق للخطوة التالية أيًا كان الموقف و الاِختلاف مع الطرف الآخر.. فاشل بِامتياز أحيانًا ولكن في معظم الأحيان ناجح

أيضًا بِامتياز..

هل يصلح الحب كأرض مشتركة..؟

لا أعتقد أن تلك المرأة تؤمن بهذا الهراء – مثلي تمامًا – فمن تتلوى بتلك الطريقة لا تعرف إلا حبًا بطريقة واحدة فقط.. بالإضافة أن ما هو ميت لا محالة لا يصلح أبدًا كأرض مشتركة..

عرفت هذا بالطريقة الصعبة عبر ثلاث زيجات فاشلة، وعشرات العلاقات التي وصلت لمختلف المستويات، ولم يكتب الِاستمرار لأي ممن ذكر فيها الحب، بل على العكس تمامًا.. كان الحب قاتلها في معظم الأحيان.

من جاء و قد قدّر له الموت، يحمل الموت كطاعون لا يكتفي بقتل حامله، بل ينشره بلا هوادة.. و في الحديث عن الحبِ مهما كان قويًا أو صادقًا.. الحبُ يقتله التجاهل، اللامبالاة، التبلد، التصنع، الهلع، التهربُ منه، الخوفُ منه، الخوفُ فيه، القلقُ عليه، حصره في شهوة أو في مصلحة.. الغدر، الكذب، الصدق، الفقر، الغنى، المرض، العجز، الموت.. قد يقتله المجتمع، الأهل، العمل، الطموح، الطمع، البخل، البلاهة، الغباء، الذكاء، البعد، القرب، الخيانة، الإخلاص، التملك.. بل وأحيانًا يقتله الزواج أو الطلاق أو الفراق أو الشقاق أو النفاق أو سوء الأخلاق أو حُسن الأخلاق..

بالتأكيد.. الحب ميتٌ لا محالة، و "الميت لا محالة" لا يُعوّل عليه.. والهالكُ يُكفَرُ به، والكفر يَستوجبُ إيجاد البديل الأكثر منطقية، وكل من أدرك تلك الحقيقة له بديله الذي يمنحه القدرة على مواصلة الحياة..

و أحد بدائلي أمامي الآن على طاولة بار..

فلسفة رائعة و يبدو أنني لفتت انتباهها، لأنها سمحت لي بالجلوس وأن أتحدث معها عن الحب الذي يموت يقينًا دون أن تغرس كعبها الحاد بين فخذيّ. الوقت مناسب

لعرضي الذي لا يمكن رفضه.. عشرة آلاف جنيه في ليلة واحدة فقط. عرضٌ جعلها تحدّق في وجهي غير مصدقة في البداية، ثم تتراجع بظهرها على المقعد بابتسامة ساخرة متسائلة بصوت أكثر سخرية:

- لا يَعرض مثل هذا العرض إلا فاقد رجولة يريد ما هو مخالف للطبيعة، أو مجنون..

الأرض المشتركة تلوح في الأفق.. ضحكتُ رغم دعابتها السمجة و تلميحها بأنني مهوس بنوع مختلف من الجنس، أو فاقد رجولة، أو مجنون، ثم رددت بهدوء:

- أنا كثير من الأشياء و الصفات ليس من بينها أنني فاقد الرجولة.. هو مجهول أعدك به كما تملكين أنت الكثير من المجاهيل التي أرغب في اِكتشافها..

الأرض المشتركة تزداد صلابة، اِبتسامتها تتسع، وتجمع أغراضها المبعثرة على الطاولة في حقيبتها دون أن ترفع عينيها عن وجهي ثم تومئ برأسها أن "هيّا بنا"..

لم أنهض، ولم تختف اِبتسامتي، بل اتسعت و أنا أتأمل إثباتًا عمليًا على مذهب الأرض الثابتة المشتركة التي أبحث دومًا عنها..

تعاظم إعجابي بذاتي و فكري حتى ندت عني ضحكة منتشية تبعتها بعبارتي:

- جميل.. بعد أثبتنا أنك عاهرة كمبدأ.. الآن يمكننا التفاوض على السعر..

تمّت

(روح من حبر)

لقد فتحت عيناي على عالم غريب، لم أستطع التأقلم معه ولا التجاوب مع أفراده، فلقد تم إيجادي فيه ليتم التخلي عني ..

ضائعة مجددًا بين دوامة ذكرياتي المبتورة والتي أدارت ظهرها لي ماضية نحو أرض الضباب، هناك حيث دُفنت شذرات روحي، كانت في يوم ما جزءًا من قصتي البائسة، فهل كان لموتها علاقة بالفجوة داخلي التي ما لبثت أن التَهمت فُتات الأمل؟ أو أن هناك طرف ثانٍ كان المسؤول عن كل تلك المعاناة والألم الذي تجرعته حد الثمالة.

فها أنا مجددًا وحيدة بين أحضان الظلام الذي يستغل ضعفي وإنفرادي ليفتك ما بقي من ذكريات جميلة جمعتني بهذا العالم، أصارع النوم رغم إرهاقي الشديد إلا من تلك الصور التي تلوح في ذاكرتي كلما أغلقت عيناي للنوم فتمنعني، أنتظر تلك القوة الخارجية مجهولة المصدر التي تختطفني من بحور العذاب لأغيب عن الوعي دون أن أشعر بكل تلك الساعات التي تمر علي وانا شبه ميتة.

اِستيقظت مذعورة، أنفاسي مكبوتة كأن أيادٍ خفية تسللت ضاغطة على رئتي، نظرت حولي متفحصة الغرفة فإذا بي أسمع دقا على السقف الذي كاد يهوي على رأسي وينهي معاناتي إلى الأبد، لكنه ماكر يقذف في قلبي كل ليلة الرعب ويطرد النوم الذي شقيت في استدعائه دون أن يأخذ بيدي إلى الجانب الآخر.

إنها إحدى ليال الصيف الحارقة الكئيبة، الخانقة لروحي، تعجبت من قطرات المطر التي زارت أرضنا العاقر في هذا الوقت من السنة، لم تكن كافية لبث الحياة فيها من جديد، فما تلبث أن تعانقها حتى تتبخر من حرارة باطنها.

كل القطع المجاورة موضوعة وفق منظور يستفزني ويجعل الدماء تغلي داخل قلبي، إلا أن ظلمة الليل أحالت الألوان الرملية إلى رمادية و سوداء، فخففت من وقع كرهي لها.

قاطع خلوتي بل أنقذني من غرق محتوم رنات الهاتف الكئيبة، حملت الهاتف لأرد :

- ....

صمت مريب لا أحد يجيب !

- ألو من معي؟! ..

- ....

استمر الصمت حتى اِشتعلت غضبًا، أغلقت الخط، غرقت مجددا في بحر أفكاري، من قد يتصل في هذا الوقت المتأخر؟ أهو شخص يعاني الأرق فأراد العبث؟

رن مجددا من نفس الرقم، تجاهلته وغيرت الوضع للصامت.

حينها وصلتني العديد من الرسائل الفارغة من نفس الرقم!

- من تكون وماذا تريد ؟

كانت هذه رسالتي ...

نطق أخيرا، وليته ما فعل!

- " أنت "

أهذه مزحة من أحدهم؟ يرغب باللعب؟

كيف لي أن أعود للنوم من جديد؟! أكان ينقص حياتي بعض المرح و الإثارة؟ ما سر تعاستي، وحدتي القاتلة، أو أفكاري المجنونة؟

رن الهاتف مجددا ...

هل أرد لأستفسر عن ماهية الرسالة المرسلة؟

بعد تردد كبير، قمت بالرد ..

نطق بصوت يبث الرعب بدون مقدمات

- أنا مهتم بقلمك المميز و مستعد لأشتري كل كتاباتك بالثمن الذي تحدديه، وإن لم تمانعي فأعرض عليك عملا بدوام كامل في شركتي.

عقلي تجاهل كل الكلمات وركز على "عمل بدوام كامل" ربما لأنني كنت في حاجة ماسة للنقود.

كان أكبر همي هو طبيعة ذلك العمل، فسألته بتسرع، ليجيب بكل ثقة:

- كاتبة في مجلتي الأسبوعية، الأمر بسيط كل ما عليك فعله الجلوس في مكتبك وكتابة قصص رعب قصيرة، أو على الأقل قصص أتذوق فيها طعم الخوف والتردد والكآبة، هذا هو شرطي و الدفع مسبق فهل توافقين؟

اِستغل لحظة غفلتي، نعاسي، تشتتي، وحاجتي، لينهال علي بعروضه السخية عله يضمن الصفقة، أي مدير هذا الذي يتصل بعماله في منتصف الليل ليحقق أمنياتهم ويدفع مبالغ طائلة مقابل حزمة أوراق بالية وأفكار مجنونة؟!

في لحظة تداركت الأمر:

- آسفة سيدي، ليس لي وقت لمزاحك الثقيل من أخبرك أنني كاتبة؟ أنا مجرد بائسة أتخذت من الورق بوابة للهرب من عالم البشر، لا تتصل بي مجددًا فلست من النوع المتفرغ للكلام والمزاح، وداعًا.

أغلقت الخط وأنا أرتجف دون ان أعي سبب ذلك، أشعر ببرودة، ربما نعاس! فقدت وعيي أو ربما أكملت نومي، لا أدري فلم أتدارك الأمر إلا مع إشراقة يوم جديد، حرمتني لذة النوم أكثر.

حاولت أن أغادر الفراش لكنني أشعر بإرهاق، دقات الباب العنيفة جعلتني أنتفض مسرعة وإذا به حارس العمارة، نظر إليّ باشمئزاز قائلا:

- إن صاحب العمارة أخبرني أن أوصل لك رسالة مفادها بأنك ملزمة بدفع الإيجار اليوم أو أنه سوف يطردك خارجا، مضيفا أنه سيحضر في الساعة الثامنة مساء لإستلام المبلغ.

غادر تاركا روحي حائرة، فكيف لي أن أوفر المبلغ الآن؟ لقد نسيت تماما أن اليوم هو موعد الإيجار، ما الذي سأفعله؟ سينتهي بي المطاف متشردة مثل أول لقاء جمعني بهذا العالم؟

ليس لي مكان يؤويني ولا عمل يضمن لي اِستقرار مالي، كل ما أجنيه هو القليل مقابل الكتابة في إحدى الصحف والتي تم طردي منها رسميا البارحة بعد اِستياء القراء من كتاباتي التي تبعث على الكآبة والتشاؤم.

لا أدري كيف انتهى بي الأمر بائسة بدون عائلة، بلا مأوى، فقط أوراق وقلم هذه كانت ثروتي، أشفق علي الطبيب الذى قدمني لأحد معارفه والذي يعمل كمحرر في جريدة مشهورة ولكنني ما لبثت وخيبت ظنه مسببة له خسارة كبيرة " إن قلمك ملعون ".

هذه كانت آخر كلماته، رحمه الله فلقد لقي نهاية مأساوية غريبة ففي تلك الليلة بالذات، وجدوا جثته غارقة في مادة سوداء تبين أنها حبر خاص بالمطبعة التابعة لمؤسسته.

ربما كان على حق، يجب أن أعتزل الكتابة فهي تزيد وضعي سوءًا، سوداويتها وكآبتها نهشت كل أمل وأحالتني لجسد بلا روح يسير نحو النهاية بأقدام حافية وجيوب فارغة.

يكفي.. لا أقدر على تحمل المزيد من شفقتهم تجاهي سأجد عملًا وسأثبت لهم أنني لست فاشلة، خيوط ذاكرتي متشابكة، لا وجود حتى لصديق، لقريب أشكو له همومي، أبكي بين أحضانه، إنني أنهار وتلك الحصون ما هي إلا أقنعة هشة لإخفاء حقيقة الفجوة داخلي.

غريبة بينهم، غريبة على نفسي، لا أجيد التواصل إلا عن طريق القلم، ماذا لو كنت في بيئة مختلفة؟ هل كانت ستشع موهبتي؟ كانت باركتني الشمس وأخاطت لي من خيوطها الدافئة ثوبا يستر روحي العارية والتشققات في هيكلي؟

أغلقت أبواب التفكير التي لن تجود لي إلا بالمزيد من الهموم والأحزان، أعددت قهوة وقررت تصفح بعض المواقع علني أظفر بفرصة عمل، وبينما أتجول من صفحة إلى أخرى إذا بعرض مغري جدا، لكنني وقفت مرتعبة حين تبين لي أن رقم الهاتف الموضوع بغية الإِستفسار هو نفسه الرقم الذي اِتصل بي ليلة البارحة!

الشروط زادت غرابة الموقف.

ما الذي يحدث هنا؟ هل الكوابيس تسربت لتختلط بواقعي وتضع أيديها على نقاط ضعفي؟!

لا خيار، يجب أن أحصل على هذا العمل، إنها فرصتي الأخيرة لإثبات نفسي.

اِتصلت للاِستفسار ويداي ترتجفان، لكن لا أحد يجيب! حاولت كثيرا حتى فقدت الأمل ووضعت هاتفي جانبا، شعور غريب اِمتزج بين خوف وقلق راودني، مجرد التفكير في ليلة البارحة ونبرة صوته جعلني أتمنى أنه كان مجرد كابوس! يقاطعني صوت تنبيه وصول رسالة ..

"كنت متأكدًا من قبولك للعرض، الليلة ستتغير حياتك، استعدي لفجر جديد "

مكبلة، عاجزة عن الصراخ أو الحركة، استعدت وعيي وسط جدران بلا ملامح، فقط سواد أخفى جريمته الشنيعة، أشعر بألم في عظامي وضيق، عاجزة عن التنفس، لا أدري أهي كمية الأكسجين قليلة أو أنني أعاني اضطرابًا، ركلات، لا بل دقات قوية قادمة من داخل صدري، أضلاعه المتهتكة أعلنت الإِستسلام، سقطت أرضا، أتخبط محاولة إزالة الأيادي الخفية التي تخنقني، وعندما أغلقت عينيّ ظنا مني أنها النهاية، اِخترق المكان

ظلًا طويلًا يحمل مشعلًا، عيناي لا تبصرا الحقيقة، فقط ظِل اِقترب مني، ووضع المشعل بقربي في أسى مرددا :

- يا لضعفك ، تموتين قبل أن تقابلي سيدك!

ما الذي يردده؟ أرى تحرك شفتيه وأسمع همسات دون أن أجد لها تفسيرًا!

أحانت ساعة الفراق؟ أو أنه مجرد كابوس؟

اِنقطع اِتصالي بالعالم وجسدي أصبح خفيفا، أشعر بتدفق سائل ما خارج جسدي، و وخز في ذراعي و ساقي.

يا أيتها الروح المعذبة ما سر هذا الشقاء الذي أخيط مع جلدك والسواد الذي امتزج مع دمائك حتى خيل لي أنه لونه الطبيعي؟ لما كان عليك تحمل كل تلك المعاناة؟ أذقتني ويلاتك..ليأتي قرار مغادرة جسدي متأخرًا ؟

كان عليك فراقي ببساطة!

لا أتذكر شيئا سوى أنني كنت في شقتي، فكيف انتهى بي الأمر بين يدي مضطرب؟ لا علاقة تجمعنا فلماذا يتلذذ بتعذيبي؟ غريب حال البشر! يشبعون نقصهم، ضعفهم بسماع صرخات غيرهم، أي ذنب هو ذلك الذي اِقترفته حتى أنال عقابًا من الرب على يدي مسخ بظل بشري.

تلاشى الضباب كاشفًا مسرحيته القذرة والتي لعبت فيها الدور الرئيسي، فكيف لي أن أنسى هذه الملامح الكئيبة والهالات السوداء؟

يبتسم بخبث ..

- إن حبرك ملعون!

أخيرًا تداركت الأمر، نفس النبرة، نفس الضحكات والنظرات المرعبة التي لطالما لاحقت أحلامي وأحالت حياتي لجحيم.

ذلك الخوف من المجهول، كان نابعًا من ظله الذي طالما تسلل لمرقدي.

ماهذا الهراء..

انني أجن!

كيف لشخصيتي الخيالية أن تحيا؟ وتسرق موهبتي لتختفي فجأة من صفحات روايتي!

يقلب مجموعة أوراقي التي شهدت أيام الشقاء متعجبًا:

- أي عقل بشري يستوعب هذا الهراء؟! هيا تكلمي، لا تحدقي بي، دافعي عن نفسك قبل أن أمحو وجودك، دقائق وتتم عملية إفراغ جسدك من آخر قطرة حبر، لقد انحرفتِ بموهبتي واختبأتِ في زوايا الظلام، بدل أن تكوني مجرد شخصية بائسة اِحتجت توظيفها في روايتي! أتعلمين تطلب إيجادك جهدًا كبيرًا، لم أصدق ما تراه عيني، لماذا أنت من بين آلاف الشخصيات؟

ماذا أقول بعد الذي سمعته؟ أهذا حقا من صنعني، والآن حتى هو يلعنني! رغم أنني صنع يديه، أكان بائسا لدرجة خلق شبيه له؟ ألا يكفي البشرية عقل مجنون واحد؟!

ألا يجب ان أفتك منه؟ أن أذيقه طعم حبره عله يدرك كم من الليالي قضيتها لاعنة وجودي بينما كنت مجرد فكرة حملتها أسطر هامشية.

أهذا هو حبل النجاة، دقائق وأفارق الحياة وأتلاشى من الأوراق، أي نهاية مشرفة هي هذه؟!

تعالت ضحكاته وهو يحمل مجموعة أنابيب أفرغ داخلها دمائي، خاضعة، فالمقاومة لن تجدي نفعا في حضرة سيدي!

خائفة، أهذا هو الموت الذي لطالما حصد أرواح شخصياتي حضر اليوم للقائي، لتخليصي من العذاب، فما عدت قادرة على التجاوب مع هذا العالم المعقد، ولا تمييز

الواقع من الخيال!

كيف لكاتب أن يقتل شخصيته فقط لأنه ظن أنها سرقت موهبته؟! لقد كانت لعنة أصابتني.

الآن أيقنت أنني مهما كان أصلي ورق كان أو تراب فأنا لست بشر!

انكسرت الأنابيب فجأة، لتقاطع حاصد الأرواح، وتغير الأحداث.

أخيرًا أدركت أنه لم يكن الوحيد القادر على إحياء شخصياته، ولكن لم يعلمها الخضوع والولاء مثلما فعلت.

لا مزيد من الظلام ! سِرنا الخطير يجب أن لا يُكشف.

فلنرقد في سلام يا سيدي فكلانا اكتفى!

تمت

(مخطوط شنقيط)

كان الجو ينذر بهبوب عاصفة رملية شديدة اعتاد سكان الصحراء في موريتانيا على مثلها، أسرع فارس بسيارته محاولًا اِختراق ستائر الرمال الناعمة التي تكونت بفعل حركة الرياح السريعة والقوية والتي حجبت عنه رؤية الطريق بوضوح يسابق الوقت كي لا تشتد عليه العاصفه ويلتهمه ظلام الليل.

حدث نفسه قائلا:

أبي والعائله كلها بِانتظاري بعد غياب أربع سنوات قضيتها في الدراسه بجامعة نواكشوط العاصمة، تخصصت في دراسة علم (الكوديسولوجي) أو علم آثار الكتب حيث يهتم هذا العلم بالمواد والطرق المستخدمة في صناعة الكتب القديمة وتجليدها كذلك يصادف اليوم اعلان اليونسكو كلا من مدينتي "شنقيط و ولاته" مواقع للتراث العالمي وهذا يضاعف فرحتي كثيرًا .

أخيرا بدأت شنقيط تلوح في الأفق لابد أن جدي حافظ الشنقيطي بِانتظاري فهذا موعد عودته من رحلته السنوية إلى "ولاته" لزيارة ضريح سيدي أحمد البكاي هذا المزار من أساطير "ولاته" وجدي حريص على زيارته ولطالما قص علي قصة سيدي البكاي نزيل "ولاته" حيث قدم إليها في الليل وكانت أسوار المدينة تغلق عند الغروب، ومن يبيت خارج الصور تأكله السباع وتعجب أهل "ولاته" عندما اِستيقظوا في الصباح فوجدوا سيدي البكاي على قيد الحياة يداعب السباع الجالسة عند قدميه كما تجلس القطط.

وصل فارس الى منزل العائلة وكان الجميع بِانتظاره بلباسهم الموريتاني التقليدي، عبائات بيضاء فضفاضه مزينة بخيوط ذهبية ولثام يغطي وجه الرجال، ترجل من

سيارته ليتوجه مسرعا إلى والده، وجهه الأسمر يكاد يشرق نور من فرط فرحته بعودة ولده فارس، اِحتضن الأب إبنه بقوة ثم ربت على كتفيه وقال:

جدك حافظ بِانتظارك.. توجه فارس إلى غرفة جده حافظ، رجل ثمانيني رسمت تجاعيد الزمن ملامح وجهه الأسمربلهفة متبادلة قبل فارس يد جده ورأسه والجد ممد على سريره لا يقوى على النهوض بصوت ضعيف قال الجد:

حمدا لله على سلامتك يافارس كنت أخشى أن أموت قبل أن أوْدِعك سر العائلة، سر نحفظه ونحميه جيل بعد جيل، واليوم بعد تلقيك العلم المناسب في الجامعة وتخرجك منها ستكمل رحلة حمايته.

كشف الجد عن صندوق خشبي من الأبنوس مُطَعّم بالعاج كان بجواره ثم قال :

افتح الصندوق يافارس وأخرج مافيه.. لم يصدق ما وقعت عليه عيناه بدهشة وعناية بالغة، قلّب محتويات الصندوق ولم يتكلم بكلمة واحدة، سأله الجد: مارايك؟ بتعجب بالغ أجاب:هذا كنز حقيقي مخطوط يعود عمره لأكثر من ٨٠٠عام مكون من خمسة أجزاء كُتبت على جلد الغزال بحروف خطت بماء الذهب ورسوم هندسيه بألوان زاهية هذا المخطوط لا يقدر بثمن ولا يوجد له مثيل كيف حافظت عليه من السرقه طيلة هذه الاعوام؟

حاول الجد السيطرة على أنفاسه المتسارعة ثم قال: ما سأقصه عليك الأن يا فارس هو الحقيقة.. حقيقة ماحدث معي منذ زمن بعيد كنت في مثل سنك تقريبًا، أعمل في المكتبة مع والدي -جدك الكبير حارس الشنقيطي- وكما تعلم كل الأسر العريقة في "شنقيط وولاته" تمتلك مكتبات تزخر بآلاف المخطوطات القديمة من كنوز التراث الثقافي المنسي في صحراء موريتانيا والتي يتراوح عمرها من٢٠٠ الى ٨٠٠ عام وبعضها، لايوجد له مثيل في العالم الإسلامي كتبت بخط المؤلف أو أحد تلاميذه الكبار.

كلها وصلت إلى "شنقيط" مع رحلات الحج والتجارة عندما كانت "شنقيط" مركزإشعاع ثقافي وتجاري كبير، أما الأن يأتي السياح إلى بلادنا بهدف السياحة الثقافية يطوفون حول مكتبات الأسر العريقة في "شنقيط و ولاته"٠

و في يوم من الأيام جاء وفد من السائحين الأجانب إلى مكتبتنا وبمنتهى الطيبه المغلفه بالسذاجة اخرج والدي المخطوط وكان يعرضه امامهم بفخر واعتزاز، وكان أبي بحكم تعامله مع السياح الأجانب يجيد اللغه الانجليزية والفرنسية اضافة إلى اللغة الأم وهي اللغة العربية ونقل هذه اللغات اليَ ٠

لاحظ والدي انبهار السائحين بهذا المخطوط، ولم ينتبه إلى أطماع أحدهم رجل لم أعرف إسمه قط، ولكن لن أنسى شكله ماحييت، انبهر السائح بالمخطوط وعرض على والدي مبلغًا كبيرًا من المال لشرائه، لكن والدي رفض بيع المخطوط، وبقوة ضاعف السائح المبلغ وضاعف والدي من محاولات اقناعه أن المخطوط ارث ثقافي وحضاري وجزء من العائلة لايقدر بثمن ولكن للمال سحره الخاص، وقد تضعف بعض النفوس أمام اِغراء المال ولما رأيت اِصرار السائح على شراء المخطوط بأي ثمن، خفت على المخطوط كثيرًا فتسللت إلى مخزن المكتبة٠ لم يشعر بي أحد وأنا أخذ المخطوط وأنسل برشاقة إلى خارج المكتبة عند اطلال مدينة "أبّيير"، المدينة القديمة التي ابتلعتها الرمال المتحركة بسبب ظاهرة التصحر وبين أحضان رمالها دفنت المخطوط٠ ثم رسمت مخططًا صغيرًا أوضحت فيه موقع دفن المخطوط بدقة واحتفظت بالورقة ملفوفة بعناية بين طيات عمامتي البيضاء فوق رأسي تذهب معي أينما ذهبت، وأعتقدت بذلك أنها ستكون بمأمن عدت إلى المكتبة لأجد أبي غارق في تفكير عميق سالته مابك ياأبي ؟

بتردد ممزوج بالأسى أجاب :

لقد وافقت على بيع المخطوط عرض الأجنبي مبلغًا عظيمًا أظنه كافيا لنا ٠

أنا أُضحي بمخطوط واحد لأحمي باقي المخطوطات، نزلت الكلمات على رأسي كضربات سيف حاد ومع ذلك حاولت السيطرة على أعصابي ولم أنطق بكلمة، ثم أردف أبي قائلا:

أنت تعلم ياحافظ أن ظاهرة التصحر تبتلع المدن الآثرية في موريتانيا، انظر إلى أطلال مدينة "آبّيير" الأثرية غرقة تحت رمال الصحراء الناعمة والمتحركة وأنت ترى كل يوم معاناتنا من هذه الظاهرة مع كل صباح لا نستطيع فتح باب المكتبة إلا بعد إزالة أطنان من الرمال التي زحفت بإتجاه المكتبة ليلًا وسدت الطريق بإتجاه باب المكتبة.

بغضب مكتوم قلت هذه معانات كل سكان "شنقيط وولاته" وغيرها من مدن الصحراء الآثرية، الخوف على شنقيط ليس من التصحر الرملي وزحف الرمال المتحركه الخوف من التصحر البشري والفكري. غرقت " آبّيير "عندما اختار سكانها الحل الأسهل اختاروا هجرة الصحراء إلى المدن حيث الراحه من حياة الصحراء القاسية وتركوا "آبّيير" خاويه على عروشها تلتهمها الرمال من جهه واللصوص من جهة آخرى، وشنقيط رديفة لها بل هي مخطوط كبيرنقش على رمال الصحراء وجدران البيوت المميزه بحجارتها الغير متساوية في الحجم والتي لونتها الصحراء بلونها نوع من العمارة الصحراوية المتأثر بحضارات العالم القديم لامثيل له في أي صحراء آخرى.

وضع أبي يديه الكريمتين على كتفي وهزني بقوة قائلًا ولكننا يا ولدي لن نترك مخطوطاتنا للصحراء، سنأخذ الأموال ونبني مكتبة أكبر لعرض المخطوطات في المدينة ونساعد ملاك المكتبات المحليه للحفاظ على مخطوطاتهم، بدون توفر الإمكانيات المادية لن نحافظ على المخطوطات الوسائل التقليديه المتبعه للحفاظ عليها لا تجدي نفعا نرش الملح في الشتاء لابعاد الحشرات التي تأكل أوراق المخطوط ونرش الماء في الصيف لترطيب المكتبة وتقليل درجات الحراره كي لاتحترق أوراق المخطوطات القديمه أضف إلى ذلك

تربص اللصوص بنا كل أسره في " شنقيط وولاّته " تتولى حماية المخطوطات بنفسها دونما دعم من أي جهة، لذلك قررت بيع المخطوط ولن أعدل عن قراري مهما حدث.

في صباح اليوم التالي حضر ذلك الأجنبي إلى المكتبه حاملًا حقائب جلديه مملوؤه بعملات نقديه أجنبيه ومعه رجال محلّيون مدجّجون بالسلاح يرتدون عباءات بيضاء وزرقاء فضفاضه ويلثمون وجوههم، وضع الحقائب مفتوحة على طاولة المكتبة فأشرقت الأوراق النقديه على وجه أبي حارس، ثم سأل أين المخطوط؟ التفت إليَّ والدي وطلب مني اِحضار المخطوط، بهدوء بالغ ونظرات ثابتة موجهة إلى عيني ذلك الأجنبي قلت المخطوط غير موجود بالمكتبه.

بعيون شاخصه مذهوله سألني أبي :ماذا؟ أين ذهب المخطوط؟

بنفس الثبات والهدوء أجبت لا أعلم لقد اختفى من المكتبة ربما سرق أبواب المكتبات والبيوت في شنقيط من الخشب الواهن ويسهل فتحها وسرقة أي مكان، بنفاذ صبروانفعال بالغ وجه الأجنبي كلامه إلى مهددًا ومتوعدًا إن لم أُحضر المخطوط الأن فسيأمر رجاله بقتلي وحرق المكتبة، لم تجدي توسلات أبي نفعا معي بل زادني ذلك اصرارًا وثباتًا على موقفي، أمر الأجنبي رجاله أن اخرجوه من المكتبه واطرحوه أرضًا، ثم انهالوا عليَّ باللكمات والسباب حتى أشبعوني ضربًا تحت مرأى ومسمع من أبي الذي حاول الدفاع عني فكان نصيبه من هذا العراك ضربه قويه على مؤخرة راسه حيث أغشي عليه و سقط أرضا.

سقطت العمامه من على رأسي لفت انتباه الأجنبي محاولاتي اليائسه لسحب العمامه ناحيتي أمسك الأجنبي العمامه وحلها من عقدتها فسقطت الورقه الصغيره التي كنت قد رسمت فيها مخططا دقيقا لمكان دفن المخطوط، أمر الأجنبي رجاله أن يتوقفوا عن ضربي ثم التقط الورقة من على الأرض، نظر فيها مليّا لم يفهم منها شيئا أعطاها

لأحد أعوانه المحلّين ففهم أن الخريطه مدفونه في مدينة " آبّيير " القديمة أخذوني معهم داخل أحد سياراتهم، عبرنا الكثبان الرملية حتى وصلنا إلى المكان الذي دفنت فيه المخطوط، وبدؤوا بالحفر أمام عيني سحبني الرجال و وضعوني مقابل مكان الحفر.

وقف الأجنبي أمامي قائلًا بسخرية بالغة:

نخرج المخطوط وندفنك حيًا مكانه في هذه الصحراء، لن يسمعك أحد ولتصرخ كما تشاء، أصرخ كما النساء كما الأطفال لعل سيدي البكاي يسمعك فيهب لنجدتك.. ثم أضاف وصوته يتقطع من الضحك أو لعل رمال الصحراء هي الآخرى تهب لإِنقاذك ثم تعالت ضحكاته الساخرة ٠

قلت بجسارة وثبات:

ياسارق الثقافات أنت تقف على قطعه من التاريخ والحضارة العريقة الخالدة هذه الصحراء برمالها المتحركه بوحوشها.. وأساطيرها الخالدة ستبتلعك أنت ورجالك الخونة قبل أن تتمكن من الخروج منها.

صاح أحد أعوانه:

وجدنا المخطوط كامل.. سرعان ما إلتهم الأجنبي المخطوط بعينيه قبل أن تغتصبه يديه، صرخت فيهم قائلًا:

انتبهوا أيها اللصوص الجهّلة، هذا المخطوط لايعامل هكذا سيتلف المخطوط ٠

التفت الأجنبي ناحيتي ثم قال بسخريه واشمئزاز:

الجاهل هو من لا يستطيع الحفاظ على كنوزه ويعرضها بسذاجة وغباء أمام

الناس.. ثم أشار اللى رجاله ليقذفوا بي داخل الحفره.. ولكن ماحدث كان أقرب إلى المعجزة، لا أعلم ما تفسير هذا الحدث العجيب ٠

سمعنا جميعا زئيرًا قويًا لأُسُود ضخمة و رأيت رجلًا وضاء يشع النور من وجهه يرتدي الزي الموريتاني التقليدي -عبائه بيضاء فضفاضه مزينه بخيوط ذهبيه وعمامة خضراء-، تحيط به هذه السباعة وتمشي معه، كان مشهد مهيب، وكان الرجل يمسك عصى طويلة في يده اليمنى يضرب بها الأرض ضربه واحدة مع كل خطوة يخطوها فتثور الرمال الناعمة تحت تأثير ضربات عصاته القوية فتتطاير الرمال في الهواء مشكله شبح وحش رملي ضخم، تسائلت في نفسي أيعقل أن تعود الاسطورة للحياة مرة آخرى، لقد مات سيدي أحمد البكاي منذ زمن بعيد من يكون هذا إذا؟ وكيف للرمال الناعمة أن تتشكل على هيئة وحش بهذه الضخامه وهذا الارتفاع؟ فزع الأجنبي ورجاله من هول المنظر، هرعوا إلى سياراتهم ولكن السباع أحاطت بهم وحاصرتهم داخل دائرة٠

تنحى الغريب صاحب العصى جانبًا ليفسح المجال للوحش الرملي الذي صاح صيحة عالية وهو يضرب الأرض بكفه الضخمة، ضربة واحدة كانت كفيلة لإِحداث هزة أرضيه قوية، اِهتزت الأرض على أثرها اهتزازًا شديدًا ثم انشقت وابتلعت الأجنبي ورجاله وسياراتهم وكل آثر لهم وكأنهم لم يكونوا هنا يوما، بعدها عادت الأرض كما كانت وبدا الوحش بالاِنهيار وعاد كما كان رملًا ناعمًا، وهم الرجل الغريب صاحب العصى بالاِنصراف أيضا ولكن قبل الاِنصراف حدثني قائلا:

-اِعلم ياحافظ أن أساطير الصحراء ووحوشها لن تصمد طويلا امام كيد الغاصبين ومكر لصوص الثقافات أنت بحاجة للعلم، العلم يتطور مع مرور الزمن يستمد قوته يوما بعد يوم بالبحث الممنهج على العكس تماما تفقد الأساطير وحكايات الوحوش قوتها مع

مرور الزمن، عليك بالعلم ياحافظ العلم ثم العلم. وبعدها اختفى الرجل .

ولم تختفي كلماته من عقلي "هكذا يافارس حافظت على هذا المخطوط واليوم جاء دورك في الحفاظ على كنوز التراث الثقافي المنسي في هذه الصحراء، حماية كل مايقع تحت يديك من مخطوطات وتحديدا مخطوط العائلة مخطوط شنقيط.

تمت

(المقبرة)

هل قتل الفضول القط بالفعل؟؟؟؟

أَم تركه بعد أن علم ما لم يكن من المفروض أن يعلمه؟؟

هل الفضول بتلك الرحمة التى تجعله يقتل من يمارسه؟؟

أَم أنه من القسوة التى تجعله يتلاعب بعقل ذلك القط المسكين بما عرفه::؟

صدقوني وعن خبرة وتجربه

يا ليت الفضول قد قتل القط ولم يتركه يموء بلسان تعجز باقى القطط عن فهمه...

أنا أحمد عبدالله.. من مواليد القاهرة، أعمل فى مجال الإرشاد السياحى، خريج آداب قسم تاريخ.. أُعَرفك بنفسي رغم أنى أعرف ما فى ذلك من خطورة، فقد حذروني أن أتكلم أو أروى أى شئ مما شاهدت، أخبروني أنى حين أروى؛ ستكون نهايتي.

وقد وفيت بذلك الوعد لأكثر من سبع سنوات كاملة، ولكنى لم أعد أحتمل.. سأقص عليكم الأمر

ولتكن نهايتي ...وسأدعو الله أن ينتظروا على حتى اِنتهى

بدء الأمر منذ سبع سنوات حين زارني صديق قديم يدعوني للذهاب معه لأكون حاضرًا وشاهدًا على كشف كبير، أنا أعرف أنه أحد أشهر المنقبين عن ثروات الفراعنة، وهو يعرف أنى من أشد الرافضين لما يفعل، فكيف يأتى إليَّ ليخبرنى بذلك.

وقبل أن اسأل سارع قائلًا أن ذلك الكشف لو كان حقيقيًا؛ فسيسلم الأمر برمته إلى أجهزة الدولة، ولكنه يحتاج أن أؤكد له قبل أن يذهب إليهم، فى البداية رفضت وبشدة،

فهل يعقل أن يكون دارس التاريخ وعاشقه هو العابث فى ممتلكاته؟!

ولكنه ألح بشدة فى طلبه هذا وفى عينيه شاهدت خوفًا شديدًا، لا أعرف إن كان حقيقيًا أَم أنى أهزي أو يهيئ لي، كررت رفضي و أصررت عليه، ولكنه أخبرني ما جعلني أتراجع، أخبرني أن الكشف يتعلق ب أحد المقابر الموجودة فى محافظة المنيا.. تلك المحافظة التى ترقد على كنوزٍ لا تُعد، أعتقد أن كل حجر فى تلك المحافظة يخفى تحته جزء من تاريخنًا القديم، و أخبرني أن كل من حاول فتح تلك المقبرة يفشل، ولكن الدهشة ليست بسبب ذلك الأمر وإنما ما يحدث بعدها.

كل من حاول فى ذلك الأمر أصابه ما يشبه اللوثة العقلية، ما أن يهبط أمام مدخلها فيفقد عقله ويفر هاربًا، الوحيد الذى نجا من ذلك الأمر هو ذلك الشيخ الذى أحضروه لطرد حارس المقبرة من بنى الجن، تلك الشائعة السخيفة التى يتناقلها كل أرباب تلك المهنة القذرة.

نعم هى مجرد شائعة.. أى عقل يقول أن جنى ما قد يجلس ليحرس مكان ما لسبعة آلاف سنة...؟؟كم عمره إذا؟؟ أعرف أن أعمار بنى الجن طويلة ولكنهم ليسوا مخلدين ليبقى أحدهم سبعة آلاف سنة فى حراسة مكان؟؟ ثم هل كل المصريين القدماء كانوا قادرين على تسخير الجن لخدمتهم؟؟ هل كانوا جميعًا سليمان (عليه السلام).

ما علينا من ذلك الأن ولنعود للرجل، لا يعلم أحد لماذا لم يصب ذلك الرجل؟ ولكن كل ماحدث أنه هبط وحده وعاد بعدها بساعة أو يزيد وهو صامت ينظر إليهم بعين مختلفة عن تلك التى هبط بها ويقسم كل من شاهده أن من يراه الأن يجزم أن عمره قد زاد عشر سنوات على الأقل.

أو كما قال صديقى اِختفت حيوية وجهه ولم يتحدث معهم إلا بكلمات مقتضبة

- (اغلقوها.... اغلقوها فورًا...لا دخل للفراعين بها....اِحمو أنفسكم من الويلات

وأغلقوها).

قالها وانصرف.. ومنذ ذلك اليوم لم يغادر منزله وتقول زوجته أنه ملازم للفراش من وقتها.

اِستفز الأمر فضولى، ويا ليته لم يفعل، ووافقت مشترطًا أن أبلغ السلطان بنفسي بعد ذهابي، فوافق الرجل على الفور

وبالفعل اِنطلاقنا إلى هناك.

❋ ❋ ❋

مع دقات الثانية عشرة ظهرًا.. كنا قد وصلنا إلى هناك

أخبرنى صديقي أننا سنذهب لتناول الإفطار وبعدها نذهب إلى المكان ولكنى رفضت وطلبت الذهاب فورًا، كان فضولي أقوى من أن أنتظر ولكنه أصر متعللًا بأن الوقت مبكر، وهو وقت عودة المزارعين لبيوتهم وعلينا الاِنتظار ساعتين على الأقل حتى لا نلفت الأنظار إلينا، ضحكت بداخلي من فكرته ف فى محافظة كا المنيا ما أن يبدأ الحفر تعرف كل القرية وتكون عملية التنقيب حديث كل أهلها

ولكنى وافقته

وبالفعل ذهبنا إلى منزله وتناولنا الإفطار وجلست فى تلك الغرفه التى خصصها لى لساعتين أو يزيد

حتى سمعت صوته يناديني ويخبرني أننا جاهزين للذهاب

وتحركنا إلى بيت قديم على أطراف القريه

ما أن اِقتربنا من ذلك المنزل حتى اِنتابنى شعور غريب بالاِنقباض

شعور مريع رغم أنى تواجدت فى أماكن كتلك مرات عديدة، إلا أنى أول مرة أختبر

ذلك الشعور

وعلى باب ذلك المنزل وجدنا تجمع من بعض الناس

ما أن شاهده الرجل حتى نده أحد الواقفين ليسأل عن ما يحدث

فأخبره الرجل أن شخصا يدعى الشيخ محمد قد حضر مبكرًا وجلس على باب المنزل ومنع الجميع من الدخول بالقوة،

تسألت عن مايحدث فأخبرنى صديقى أنه ذلك الشيخ الذى أخبرنى عنه

وذهب إليه ليحدثه والرجل يصرخ

(لا...لن يخطو أحدكم خطوة للداخل...لن أترككم تلقوا بأنفسكم للهلاك...)

قالها وهو يلوح بسلاح نارى من ذلك النوع الذى يحمله غفر القرى ...تكلم صديقى معه قليلًا فقاطعه الرجل صارخا:

(قلت لا.. لا أحد منكم يفهم أى شئ...هذه المقبرة نذير شؤم و خراب ...لن أترككم تدمرون القريه كلها)ثم رفعه سلاح لاعلى وهو يصرخ(من سيقترب من هذا الباب سأطلق عليه الرصاص فورا)

ابتعد الجميع خائفين وصديقى يقول للرجل أن لا يخاف ويخبره أنه قد أحضر خبيرًا من القاهرة وسيسلم الأمر كله للسلطات، قالها وهو يشير إليّ

نظر الشيخ نحوي وهم بالحديث

ولكن فجأة.. وقبل أن يتحدث، أخذ جسده فى الإرتعاش بقوة

أخذ يشير إليّ بيده وجسده يرتعش وسقط سلاحه من يده، وقبل أن يقترب منه أحد الواقفين كان قد سقط أرضًا.

هرولت إليه وأنا أصرخ في من حوله أن يستدعى أحدهم طبيبًا

اِحمر وجه الرجل واِحتقن بشدة وكأنما يخنقه أحدهم بقوه

واخذ يحارب لالتقاط انفاسه وانا امسكه بيدى عاجزا عن التصرف وهو ينظر الى ويحاول الحديث

امسك يدى وضغط عليها بقوه قائلا كلمه واحده حارب لاجل اخراجها(لا تدخل)

قالها وهدء جسده وسقطت رأسه

تفحصت نبضه بسرعه فوجدته وانا اتوقع انه قد مات

ولكن لحسن الحظ كان مغشيًا عليه فقط

حمله بعض الرجال وركضوا به. أخبرنى صديقي أنهم سيأخذوه لمستشفى القرية

وسألنى أن كنت سأكمل أم أنى تراجعت

وبعد صمت لدقيقه أو يزيد

كانت كالحرب بداخلي بينان انسحب واكتفى بما حدث

أم أروى فضولى وأكمل

نظرت اليه قائلا

سنكمل

❋ ❋ ❋

مرت دقائق وهو ينظر إليّ مندهشا من قراري

وبعد صمت طال أخبرنى أن نتراجع لأن ما يحدث شئ عجيب يجب أن نضعه فى الاِعتبار

تلك الحالة العجيبة التى أصابت الشيخ

هى نفس الحالة التى أصابت كل من اِقترب من تلك المقبرة

ولا يبدو الأمر طبيعيًا،

نظرت إليه وأنا أسأله لماذا لم يحدث ذلك الأمر له،
نطقتها وأنا نفسي غير مقتنع بها ولكن فضولى كان أكبر مني
ويا ليته لم يكن

❊ ❊ ❊

بالفعل بدئنا رحلة الهبوط إلى تلك المقبرة
وحدنا فعلنا بعد رفض الجميع الذهاب معنا بعد ماحدث
ولكنى لم أتراجع ...ولم يستطيع صديقى التراجع مع اِصرارى
ومن فناء المنزل توجهنا إلى تلك الحجرة الصغيرة
ليفتحها لنا صديقى ونبدء فى الهبوط على سلم خشبى
على حافة تلك الفوهة الصغيره التى تتوسط الغرفة،
هبطنا عشر أمتار أو يزيد قليلًا حتى لامست قدمي الأرض،
أدرت وجهى لأجد فتحة كبيرة قد على سقفها ما يزيد قليلا عن طولي، وقد تم عمل دعامات خشبيه باِتقان شديد لمنع السقف من الاِنهيار،
أنار صديقى كشافًا صغيرًا كان يحمله وبدئنا التحرك للأمام
جو خانق معتاد فى تلك الأماكن،
الأوكسجين يصل إلينا على اِستحياء رغم كبر ووسع المكان
وهو أمرا لو تعلمون غريب
ورغم أنى قد تواجدت فى أماكن كتلك لمرات عديده إلا أنى لم أصادف ذلك الجو الخانق من قبل
ليس فقط لقلة الأوكسجين ولكن هناك جو عام غير مريح،

مقبض يدعو للرهبة

استمر المسير لعشر دقائق تقريبًا، حتى وقفنا أمام تلك البوابة الحجرية المليئة بالنقوش الفرعونية،

أمسكت الكشاف من يده وأنا أنظر لتلك الرموز وأتفحصه،

هناك أمر غريب فى تلك الرموز،

أشعر أنها غير مرتبة ....لا تعطى أى معنى....أنا أفخر بأنى من أفضل من يترجم الرموز الهيروغليفية ...ولكن عاجز عن فهم أى شئ من الموجود على تلك البوابة، كل الرموز صحيحه ولكن لاشئ صحيح فى نفس الوقت، هى مثل من يكتب بالأبجدية دون أن يحاوا أن يصنع جملًا كاملة، مجرد أبجدية متشابكة.

أخبرت صديقى بذلك دون أن أنظر إليه فلم أسمع منه أى اِجابة، تلمست البوابة وأنا أنظر ناحيته، فلم أجده أو تحريا للدقه لم أجد المكان كله.

تحول المكان لبهو واسع تتراص فيه تماثيل كبيرة الحجم

لجسد اِنسان ورأس حيوان غريب

أو كما يطلق عليه (ست) إله الشر عند الفراعنة

أصابنى ما رأيت برعب كبير

نظرت فإذا فى نهاية البهو عرش كبير يجلس عليه رجل بملابس فرعونية وحوله مجموعة من الرجال الأشداء عراة الصدور، ما أن رأنى حتى أشار لهم فتقدموا نحوي وأنا أحاول التراجع أمامهم، فاِصطدم ظهري بحائط ظَهَرَ فجأة،

أمسك بى االرجال وتقدمو بى إليه فنظر إلى بنظرة غاضبة وقال:

(لقد اقتربت بما فيه الكفاية ياهذا.. ألم تنتبه لكل التحذيرات التى قدمنها إليك؟؟ .... كيف تجرء على تدنيس حرمة قبرى؟؟؟)

ألجمنى الخوف ولم أستطيع الحديث فأكمل قائلًا

(هل تعتقد أن قبرى مستحلًا لأى كائن كان؟؟ لقد حكمت على نفسك بالموت ....هل تعتقد أن بموتى ينتهى سلطاني على تلك الارض)

نظرت إليه وأنا أستجمع قواي قائلًا

(لايمكن أن يكون ذلك حقيقه....!!! أنا أهزى.... اكيد إنى أهزى)

ضحك ضحكت عالية وهو يقول

(وهل كل ماتشعر به الأن هذيان ... ها أنت بين قبضتي ...هل مرور الزمن جعلكم تعتقدون أن الموت هو نهاية المطاف ...ألم تتعلموا أن الألهة لاتموت)

خرج منى الرد بقوة لا أعرف مصدرها وأنا أقول

(لاااا الا الهة الا الله عز وجل اى ان كان مايحدث ف انا اعلم انه وهم لا يمكن ان يكون غير ذلك)

لمحت شبح اِبتسامة على وجهه وهو يقول

(أحسنت أيه الانسى... أحسنت)

قالها وجسده يتمدد وتستطيل أذنه بشكل غريب ويظهر من خلفه جناحان ضخام ويتحول لونه إلى الأحمر وتحيط به هاله كبيرة من النيران

وهو يقول

(مرحبا بك يافتى فى أرض قبيلة الخشابين)

❊ ❊ ❊

دوت كلماته فى اذنى

لا يمكننى أن أصف حالتي فى ذلك الوقت أو ما أشعر به ولكنه كان خليط عجيب من الخوف لا بل الرعب الشديد، مع اِحساس بأن ما يحدث مجرد وهم وأنى سأفيق فى

أى وقت على صفعات على وجهى من صديقي الذى اِختفى ليخبرنى أنى فقدت الوعى، وفى نفس الوقت شعور بالإِستغراب والتعجب مما أنا فيه

خليط عجيب أعرف أنه صعب الفهم

ها أنا أقف أمام ذلك المخلوق العجيب بعد أن تغير المكان مرة آخرى ليتحول إلى مايشبه الكهف

نعم كهف كتلك الكهوف التى نراها على شاشة التلفاز

أحجار تشع ضوء يغلب عليه اللون الأزرق فإذا نظرت إليها تتحول للأحمر فى عينيك وما أن تدير عينيك عنها حتى يهدأ الوميض الأحمر وتعود كما كانت،

أخذت أجول ببصرى وأنا الاحظ تلك الكائنات التى تجول فى المكان وتشبه المخلوق الذى كان يحادثنى وإن كانوا أقل حجمًا ثم نظرت للكائن وأنا أقول وأسال عن أين أنا وماذا يحدث؟!

نظر إلى الكائن وابتسم قائلًا

(كما أخبرتك نحن... قبيلة الخشابين أحد القبائل المحاربة فى صفوف جيش مملكة الجن المسلم ونحن القائمين على حراسة تلك المقبرة التى تحاولوا فتحها)

تسألت بدهشه كيف بقبيلة محاربة كما يقول تقف كلها على حماية قبر واحد؟!! ما نعرفه هو أن من يقوم بذلك هو جنى واحد فقط

قال بهدوء

(وماذا تعرفون أنتم....أنت منذ قليل كنت ترفض فكرة حماية الجن لمقابر الفراعنة.. أليس كذلك)

نظرت إليه بدهشة وأنا أتسأل كيف عرف ذلك؟!

فأجاب باسمًا

(إنه جنى الرصد ياعزيزى أهم ما يميزه أنه قارئ جيد للأفكار وقد كانت تلك الفكرة برأسك حين دخلت إلى هنا مع فكرة آخرى.. سأخبرك عنها بعد أن أجيب تساؤلك)

سألته عن أى فكرة تتحدث

أجاب بهدوء

(أولا أجيبك عن كون قبيلة محاربة كاملة تحرس ذلك القبر، فذلك القبر ياعزيزى يكمن بداخله شر لا قبل لكم به معشر البشر وقبل أن تتسائل دعنى أُريك)

قالها واقترب مني وهو يشير بيده إلى جدار الكهف ليتموج بشده وتبدأ بعض الأشياء تظهر من خلاله حتى تحول لما يشبه شاشة عرض كبيرة تظهر مشهدًا غريبًا

بعض الناس تركض وهى تصرخ وخلفهم يركض مجموعة آخرى تظهر على وجههم ملامح توحش غريب

وما أن يسقط أحد الصارخين حتى ينقض عليه المتوحشين ويسحبونه سحبا إلي خارج نطاق الشاشة

نظرت إلى الكائن متعجبًا، فأشار بيده للشاشه فى إِشارة لأُكمل المشاهدة

إِستمر المشهد لمدة دقيقة أو يزيد ثم أظلمت الشاشة لثوانٍ معدودة ثم تضاء على مشهد آخر،

أحد البشر على منضدة مكبل اليدين والقدمين

وحوله مجموعة من المتوحشين ومن ركن الشاشة يظهر كائن ضخم....شديد السواد يحمل مجموعة من العيون تملاء وجهه ويدين ضخمتين بشده ولكنه بدون أقدام ...نعم جسد هلامى شديد السواد يزحف متجها إلى تلك المنضدة

وما أن أصبح أمامها حتى إِمتد منه ما يشبه اللسان الطويل،

إلى رأس الشخص المكبل فتخترقها إِختراقًا وسط صرخاته التى إِنتهت ما أن إِخترق

اللسان رأسه

واخذ يسحب ما فى الرأس بتلذذ غريب وحوله المتوحشون يهللون، اشحت وجهى عن الشاشة فأشار الكائن بيده فتعود إلى هيئتها الأولى كا جزء من الجدار

ونظر إلى قائلًا

(ما رأيته أنت الأن هو ما يمكث فى تلك المقبره، أحد الكائنات الشيطانية التى تسيطر على عقول البشر وتدفعهم لإصطياد الآخرين ليتغذى على عقولهم.... ظهر فى عهد أجدادك القدماء وفشلوا فى التغلب عليه.... بسببه أُبيدت مدن كاملة..... وأمام عجزهم تم استدعائنا.... وحين حضرنا وشاهدناه عرفناه على الفور.... أحد كائنات الجحيم... والجحيم هنا مجرد لفظ مجازي ليخبرك عن مدى خطورته....هو أحد أتباع جيش اِبليس وقد أُرسل لتمهيد الارض لغزو شيطانى مستغلين قلة علم أهل الارض وقتها بتلك الامور.... وبالفعل اِستطعنا التغلب عليه ولكن الأمر ليس بالسهولة التى تجعله يموت ولكنه مجرد تحجيم لقدرته وتم سجنه فى تلك المقبره.. وتنصيبنا حراس عليها لمنع الإقتراب منها)

دارت رأسي من فرط ما سمعت

ماهذا

أ لن أفيق؟

أ لن ينتهى ذلك الحلم؟

قاطع الكائن أفكاري قائلا

(كان يمكننا ان أجعله مجرد حلم..... وأن يحدث معك مثل ماحدث مع أقرانك ممن دخل ال هنا..ولكن ما قرأه الراصد فى رأسك وقت دخولك هو ما منعنى...... تلك الرساله التى تركتها لصديقك تخبره عن الأمر.... كان سيسلمها لهيئة الآثار كما أخبرته أن يفعل إذا حدث لك مكروه وأخر ما نحتاجه هنا هو اِثارة القلق حول المكان)

حاولت الحديث ولكنه اِستوقفنى قائلًا

(سندعك تخرج يافتى لا تخف ولكن لنا شروط..... أولها أن تمنع صديقك من نشر الأمر فلا سلطة لنا خارج هذا المكان ولا يمكننا أن نتمكن منه طالما لم يأتى هو إلى هنا.... ثانيا أنا لا تذكر ما حدث وما عرفته هنا لأى مخلوق كان تحت أى ظرف)

أجبته برعب أنى سأفعل فابتسم قائلًا

(لابد أن تفعل فإن لم تفعل وعلم أحد بالأمر سنأتى إليك وستكون نهايتك .... والأن اذهب ستجد صديقك ما إن أخْتفى أنا)

قالها وإختفى... وإختفى معه الكهف لأجد نفسي أمام باب المقبرة وبجوارى صديقى فاقد الوعى

❋ ❋ ❋

دقائق من الصمت أو بالأصح من العجز عن اتخاذ أى رد فعل...كل ماحدث وما شاهدت فى تلك الدقائق التى مرت على كاشهور كاملة

لعنة فراعنة، وقبيلة من الجن وكائن من الجحيم

هل عقلى يتحمل كل هذا؟؟؟؟

مرت وقت لا أعلم قدره، وأنا أقف فى مكانى عاجز عن الحراك

لا أعرف متى تحركت؟ ولا كيف خرجت من تلك المقبرة الملعونة وأنا أحمل صديقى البدين على كتفى؟

لا أعرف حتى الأن ماذا أخبرت من كان ينتظرنا بالخارج،

ولا كيف وصلت إلى محطة القطار لاستقل أول قطار إلى هنا؟

وبعد مرور أسبوع كامل بلا حراك لا خروج من المنزل لا شئ،

استعدت اتزانى وأخذت أراجع كل ما أعرف عن التاريخ الفرعونى لأصل إلى تلك

الحقبه التى ظهر فيها هذا المخلوق

ولكن ماسبب دهشتى لم أجد أى إشارة له،

أبحاث استمرت ست سنوات كاملة ولم أجد أى شئ

حتى تأكدت أن فى الأمر خدعة ما.... ذلك الفرعون أو بنى الجن أو أى كان قد أخفى عنى شئ ما

لذلك أخذت القرار أن أنشر ما حدث مهما كانت النتائج

ومع رسالتي لكم ستجدوا عنوان ذلك المكان الذى تقع فيه تلك المقبره اللعينة،

سأرسل لكل من عندى تلك الرساالة وأنا أعرف أنها ستكون أخر ما أكتب

❊ ❊ ❊

أغلق المقدم (محمود الزينى) ذلك الملف الذى كان يطالعه وهو ينظر إلى زميله الجالس أمامه قائلًا

_أعتقد أنه حان الوقت أن نغلق تلك القضيه للأبد يا خالد

نظر إليه خالد وهو يخرج علبة سجائره ليناوله واحده منها ويشعل الآخرى قائلًا

_صعب جدا ياصديقى الوزارة كلها مهتمة بتلك القضية ومعالى الوزير شخصيًا يريد أن تصل إليه معلومات عن أسرار اختفاء ذلك المرشد السياحى وعن تلك المقبره التى تحدث عنها

زفر محمود دخان سيجارته بضيق شديد وهو يقول

_يا خالد لا وجود لذلك الشخص لقد بحثنا فى كل السجلات عن شخص يحمل هذا الإسم ويعمل مرشدًا سياحيًا فلم نجد

حتى فى بحثنا فى العنوان الموجود فى تلك الرسائل لم نجد أى مقابر بل لم نجد أى

منازل من الأساس مجرد قطعة أرض خاليه نقبنا كل جزء فيها فلم نجد أى شئ

تسائل خالد قائلًا

_وماذا عن شرطة الاِنترنت... أَلَمْ تستطع تحديد المكان الذى أُرْسلت منه تلك الرسائل

ضحك محمود قائلًا

_هههههه لا لم يستطيعوا كلما بحثو يصل بهم البحث إلى مقر مستشفى الأمراض العقليه

ضحك خالد بشده رغم دقة الموقف ومحمود يكمل

_رأيى لم يتغير فى لحظة منذ اِستلمت تلك القضية.. شاب رقيع يلهو ويمزح بتلك الرسائل ومن الواضح أن له خبرة اِليكترونية كبيرة حيث اِستطاع تضليل جهاز شرطة الاِنترنت كلها

نظر إليه خالد ولم ينطق فصمت محمود قليلا ثم قال

_انتهى الأمر سوف أسلم ملف تلك القضية لتغلق للأبد

قالها وهو يضرب بيده على ملف القضية بقوه

❊ ❊ ❊

- لقد انتهى الأمر ياسيدى

نطقها ذلك المخلوق الشبيه بالبشر وإن اِختلف لونه المائل للخضرة واستطالت جبهته بشكل ملحوظ وخلا كل وجهه من أى شعر

فالتفت إليه مخلوق أخر يشبهه بشدة وكأنما هما تؤمان

وهو يقول

_هل تأكدت بنفسك من عدم وجود أى آثريا (سيجرا)

أجابه سيجرا باحترام بالغ

_نعم ياسيدى فذلك الشاب أصبح لا وجود له على كوكب (مترا ٢٣٠) وهو الأن فى طريقه إلى كوكبنا على متن سفينتنا (هاوزر)

صمت المخلوق قليلا ثم تسأل قائلا

_ألم يشك البشر ياسيجرا

أجابه سيجرا سريعا

_لا ياسيدى أنت تعرف البشر يتعاملون مع أوراق لا مع أشخاص ما أن تختفى أوراق شخصا ما حتى يختفى وجوده وقد ساعدنا على ذلك أن ذلك الشاب لم يكن له أقارب وكل معاملته كانت من خلال تلك الشبكة العنكبوتيه....وتطلب الأمر التعامل المباشر مع كل من يعرفه شخصيا من خلال اشاعتنا (ماندورا) لينتهى تماما

نظر إليه القائد وهو يقول

وماذا عن المكان الذى حدده فى رسالته

صمت سيجرا ولم يجيب فصاح فيه القائد

_تكلم ياسيجرا ماذا عن المكان

قال سيجرا

_لقد استخدمنا سلاح(سيمار١٢) وبدلنا مكان المقبره

انتفض القائد عند سماعه تلك الجمله وهو يصرخ

_كيف تفعل ذلك ياسيجرا دون الرجوع إليَّ، ألا تعلم خطورة التلاعب بجغرافيا الأرض؟؟ هل جننت؟!

أجاب سيجرا

_لم يكن هناك بديل لذلك ياسيدى فلقد انتشرت الرسالة وفيها مكان المقبرة

بالتحديد ولم يكن لدينا إلا أن ننقلها ثم إنها مرة واحد ولن تكون مؤثره

صرخ فيه القائد قائلا

_لا يا سيجرا ليست مره واحده وأنت تعلم ذلك جيدا وتعلم أنه منذ استخدمنا هذا السلاح وهناك تحذير من المستوى الاول من استخدامه

قالها وعقله يسترجع تلك الذكرى المتوارثه فى عقله من خلال تلك الميزه التى بتمتع بها ابناء ذلك الكوكب المجهول الا وهى توارث الذكريات من القدماء

تذكر بداية زيارتهم للأرض وكيف أنهم وجدو الجميع يرضخ تحت نيران الجهل وكيف قرروا العودة بعد أن فقدوا الأمل فى التواصل حتى وجدوا هولاء القوم وكيف أنهم وجدو أنهم قد وصلو إلى علوم تقترب بشده من علومهم وقرروا التواصل معاهم.. هولاء القوم الذين أُطلق عليهم فراعنه الذين كانو يملكون العلم والحضاره فى وقت كانت فيه الارض تحبو نحو التحضر

تذكر كيف تواصلوا معهم وتبادلوا معهم العلوم والخبرات

وتذكر كيف أن تعاونهم قد سار حديث كل الكون بعوالمه المختلفه

تذكر حين قرار حكماء الكوكب أعطاءهم سر الحكمه العظيم

وكيف طمع ذلك الفرعون فيه وقرر الانقلاب عليهم ليستأثر به لنفسه

تذكر ذلك الاِجتماع فى أحد معابدهم مع أهم الكهنه

وكيف حاسرهم ذلك الفرعون بجنده

حين أراد قائد البعثه أفنائهم جميعًا جزاء لما فعلوا

لولا أن جائهم قرار مجلس الحكماء باِخفاء السر والاِنسحاب

تذكر حين اِستخدم سلاح (مندورا) الماحى للذاكره لأول مرة على ذلك الكوكب على جيش الفرعون

وخروجهم بصحبة الكهنه لدفن السر على الطريقة الفرعونية مع وعد بالعوده حين يصل أهل الأرض للحضارة التى تمكنهم من إِستخدامه

تذكر استخدام السلاح (سيمار١٢) لتغير جغرافيا المكان الذى دفن فيه السر حتى لا يصل إليه حتى الكهنة الذين ساعدوهم ومغادرتهم الكوكب منذ آلاف السنين

أفاق من ذكرياته على صوت سيجرا يقول:

_ألم يكن هناك بديل ياسيدى

صمت القائد مقتنعًا بما قال سيجرا فسأل سيجرا:

_ولكن ياسيدى لماذا لم نفعل مع هذا الشاب مثلما نفعل عادة؟! لماذا تركناه؟!

قال القائد

_لنختبره ياسيجرا لقد تعمدت تركه لنرى إلى ماذا وصلوا وكيف سيتعامل مع الأمر ...وأثناء بحثه فى الأمر أدخلت إليه العديد من الدلائل على وجودنا ولكنه تجاهل كل ذلك وصب بحثه عن الكائن الجحيمى الذى أوهمناه بوجوده... تجاهل الحقاق ليركض خلف الوهم

صمت قليلا ثم أكمل

_يا للأسف هل حقا من تعاملنا معهم هم أجداد هولاء الحمقى؟ كيف يكون مجموعة من الحمقى كاهولاء أحفاد لعظماء كالفراعنه؟

صمت سيجرا قليلا ثم قال

_ولكن ياسيدى ألم يأن الأوان ليعرفوا سر ما فى مقبرة الحكمه فذلك السر وحده قادر على أن يصنع لهم تتطورا مهولًا

أجابه القائد

_لم يأن الأوان بعد يا سيجرا... نحن نتابعهم ونعرف كل شئ عنهم هم مجموعه من

المتخلفين يتعاملون مع كنوز أجدادهم على أنها مجموعة من الأحجار تعرض فى متاحف وتسرق أيضا .....لا ينظروا إليها على أنها اكتشافات علمية وجب عليهم أنهم ينطلقوا من عندها لا أن يقفوا لتيهوا بها فقط....ولا استبعد أيضا أن يقوموا ببيع ما فى مقبرة الحكمة لاحدى الدول الآخرى أو أن تسرق منهم كما حدث فى أشياء كثيرة.... ألا تعرف أعمدة الإتصال الفائقة التى يسمونها (مسلات) تملئ بلدان آخرى وبضعونها فى ميدانيهم مجرد قطعة حجر....هل يعتقدون هؤلاء الحمقى أن فراعنة عظماء سيضيعون وقتهم فى صناعة أحجار لا نفع منها.....لا يا سيجرا... لا زال أمامهم الكثير.

قال سيجرا

_الامر ما يرى سيدى.... ولكن ماذا عن القادم مع سفينتنا هل سنتخلص منه؟

التفت إليه القائد بغضب وهو يقول:

_ماذا دهاك يا سيجرا أبناء (مترا٢٣٠) أصدقائنا منذ متى نتخلص منهم.

حاول سيجرا الحديث لولا أن قاطعه القائد قائلًا:

_سيوضع فى دائرة التجميد مع باقى أقرانه الذين أحضرناهم حتى يأتى الوقت الذى نرى فيه أنهم يستحقوا استلام سر مقبرة الحكمة فنسلمه لهم ومعه أبنائهم

أجاب سيجرا

_ألامر لسيدى

قالها وإنصرف

والقائد ينظر فشاشة كبيره أمامه تحمل صوره لكوكب الارض وهو يردد

_قريبا أعرف أنه قريبا

تمت

(نوَّاح الليل)

مراد آمرًا جنوده بالتصويب إلي رؤوسهم:

- إنها فلسفة الإلحاد يا كفار.

ثم أطلق النيران علي رؤوسهم، ثم باعد بين أصابع قاسم ليرى ماذا كان قابضاً بيديه فوجد قلادة مكتوب عليها الشهادة متداخلة مع قلادة أخرى عليها الصليب.

فاستخلص مراد قلادة الشهادة وترك الأخرى وأقفلها علي يد قاسم مرة أخرى وقال له وهو مغادراً:

-"ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه" و كذلك لا يجتمع دينان في قلبٍ واحد أيها الأغا.

ثم نزع راية التوحيد من علي الحائط، وأخذ المصحف من علي حامله، و خرج مع جنوده وتبخروا في طرب المدفعية.

لم يكون سهلًا على أهالي قرية (النخيل)الصغيرة، رؤية خيرة شبابها وأبنائها جثث هامدة تطفو على سطح ترعتها المغمورة بالمياة، كل صباح بوجوههم المرتاعة التي تبث الرعب في نفوس مَن تقع عينيه عليهم، بملامح وجوهم المفزعة والمنفرة، بأعين جاحظة و-فكًا معوجًا بقسوة وكأنه على وشك الانقسام مبتعدًا عن باقي معالم الوجه، المنكمشة على أخرها من جهة اليمين و كأن ذلك الإنكماش الرهيب ناتج عن خياطة متقنة بيدي خياط ماهر يتفنن في شك الغرز المخفية بإبر مسنونة لصنع الوجوه المفزعة تلك، أجسادهم متخشبة و كأنها تماثيل حجرية قاسية متحجرة تُترجم مدى هول ما رأوا، فكان

هذا المشهد القاسي يتكرر كل صباح كفيلًا بنشر الفزع و الخوف فى نفوس الأهالي، فمَن تجرأ على تنفيذ تلك الجرائم البشعة الشنعاء بحقهم، ليس بهين إنما هو قاتل متسلل مجهول الهوية، فاقت أفعاله حدود البشر يقوم بقتلهم بدمٍ بارد غلظة قلبه المعتم هذا اجتاحت كيانه كله، لديه دافعًا قويًا وراء قتله المستمر لهؤلاء فهو لا يرحم كبيرًا أو صغيرًا، و كأنه يفتقد شيئًا ما قد سُلب منه أو بمعنى أصح انتزع منه انتزاعًا، فقد حدث هذا منذ زمنٍ بعيد، و تم على أيدي نابشي القبور مَن تجردوا من مشاعر الإنسانية حبًا في المال وطمعًا سيطر عليهم فجعلهم لا يفرقون بين حرمة القبور وبين أطماعهم القذرة، يقومون بتنفيذ عملهم المُغزى هذا تحت ستار الليل الساكن كوحوش الظلام المفترسة تفترس أنين الظلام الدامس حتى تصل لفرستها الساكنة التي تجردت منها الروح فأصبحت ضعيفة خاضعة رغمًا عنها، يتجولون بين القبور وسط السكون يتهافتون على ضحيتهم الطازجة ، فدائمًا يحصل الطازج على السعر الأعلى، و لأن لكل ظالم نهاية، قادتهم نواياهم الخبيثة لقبر(نَوَّاح الليل)، صاحب الجحيم الأرضي بقرية (النخيل)، فكان ك (راسبوتين) زمانه الكاهن الغامض الذى حير روسيا، فعالمه الغامض و الذى جاهد للوصول إليه، جعله يتمادى في طغيانه و وحشيته و تتشعب نفوذه أكثر و أكثر بين أعيان القرية، علمه العميق بخفايا السحر السفلي والشعوذة، و قدراته الخارقة في تحقيق مراد التائهين و المُعذبين من مَن وجدوا مع (نَوَّاح الليل) و أمثاله طوق النجاة الوحيد لهم متغطيين عن قدرة الله عز وجل و التي فاقت كل شيء، فأعمهم الجهل و أغرتهم قلة إيمانهم و ظلمة قلوبهم بالسراب و طريق الضلال، مما جعل (النَوَّاح) يزداد غرورًا و تكبرًا على الله تعالى ، إلى أن أنساه إبليسه بأنه من البشر مهما ارتفع و تذوق حلوة القوة و الجبروت ، و حتى إن زادت قدراته نفوذه إلى آخر مدى، لن تفوق و تعلو قدرة رب العرش العظيم ﷻ القادر (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون) صدق الله العظيم، ليجعل نهاية ذلك الماكر ومَن مثله

بيديه هو وحده سبحانه وتعالى، و قد جاءت نهاية (النَوَّاح) على أهون سبب كنهاية (النمرود) على يد بعوضة، فنشبت نيران الغضب من أثر قطعة حجر مشتعلة، فاجتاحت نيرانها عشته البالية، اِبتلعته معها فاِحترق جسده كله، و لم يبقى منه إلا لسانه، و الذى اِنتزع منه بباطن حذاء أحد نابشي القبور أثناء وجودهم بعرينه يبحثون عن ضحيتهم بداخل قبره، و من هنا بدأت اللعنات تتوالى على أهالي قرية (النخيل)، ليأتي عليهم صباح اليوم التالي جثث هامدة متخشبة بملامح مرتاعة تطفو على سطح الترعة، و استمر ظهور الجثث مع بداية كل يوم جديد تطفو على سطح ترعة قرية (النخيل) جثة جديدة تعلن عن تفشي الموت، فكانت ضحاياه تتساقط كأوراق الخريف ضحية تلو الآخرى، فمنهم مَن تسبب حظه العسر في قتله عند ظهور (النَوَّاح) أمامه فجأة، و منهم مَن قتله فضوله لرؤية ذلك المجهول الذى يهم ليلًا بين أزقة القرية يعوي بصوتًا جوهري خشن تهتز له الأوصال و ترتعد له الفرائص صارخًا :

- (أاااااانا نَوَّاح الليل أبو سبع رجلين بيدي دي أجيبك و بالتانية أشجّك نصين)

يحوم تحت ضوء القمر الخافت يعوي كما تعوي الذئاب ينادي بأسماء مَن كانوا يلجأون إليه، مَن كانوا يجدون فيه طوق النجاة و ماء المحاياة الأن هما يستكنون بجحورهم كالفئران يرتعدون خوفًا و فزعًا منه، فمَن كان يُخلصهم يحمل سيف نهايتهم بيديه، يتشدق بأسماءهم فتتغلل نبرته صوته الصارخة هبوب رياح الليل القوية فتجتاح شقوق منازلهم الطينة الواهنة أمام صراخه الذى يضم الآذان، يبحث بأعين شيطانية زائغة فارغة عن ضحاياه، تتأرجح نيران الغل و الانتقام من بين أنفاسه الحارقة، مغلولة من قريته و أهلها الجبناء، فكيف لهم إن يتركه تلتهمه النار هكذا ببساطة و هو منقذهم و حاميهم، و هو مَن كان سلطانهم يخضعون لقوته و مكانته، فالموت ليس كافيًا إنما أكثر من الموت و أشده قسوة ما يسعى إليه، حتى ينتقم منهم فموته لا يعنى نهايته ، فأصبح غروب

الشمس كنقوس الخطر يحذر بقدومه و أصبحت القرية غاوية رغم وجود أهلها يرتعدون خلف جدران منازلها من صدى صوت ضرب اقدامهم و أزيز أنفاسه كزئير الأسد الجائع، فكانت ضحيته الجديدة الطازجة (سالم) الصغير ابن السابعة، ذاك المتمرد الصغير يدفعه دائمًا فضوله، و الذى تمكن منه فضوله إلى أقصى الحدود، إلى جانب كره للإقامة الجبرية بغرفته، عند غروب الشمس حتى لا يتحول مصيره كمصير الضحايا قبله، فعليهم إن يستكنوا بداخل بيتهم بهذاك ألقت بالذات فلا تفتح النوافذ و تغلق الأبواب و يكتم كل صوت و تغمض العيون و تصم الآذان و تبدأ الأوصال ترتعد و خفقات القلوب تزداد و يملأ الفزاع النفوس.

ليتسلل (سالم) كعادته تاركًا وراءه أفراد عائلته الصغيرة ينضمون على أنفسهم خشية الموت، فتمرده و رغبته الشديد في رؤية عفريت (نَوَّاح الليل) جعلته يتهافت لرؤيته، و ينتظر ظهوره كل مساء حتى و لو لمح طيفه المظلم من بعيد، كل ما يهمه هو تحقيق رغبته تلك المُلحة عليه، و لكن كان نده و عدوه الوحيد النوم الذى يهجم عليه كل ليلة كالضيف الثقيل الدبق يستمر بالمقاومة ضده في حرب غريبة من نوعها تنتهى دائمًا بانتصار الضيف الثقيل الدبق، ليجعله في النهاية يستسلم له على الرغم من كل محاولاته الفاشلة و مقاومته المستميتة في التخلص منه، و كأن القدر يمنحه الفرص للنجاة بحياته، فيتكرر ذاك المشهد كفيلم سينمائي قصير مضجر لا يستمر أكثر من عشر دقائق، و يظل النوم كالجندي الباسل في محاولات أنقذه للحياة ذاك المتمرد، حتى أتى (سالم) بنفسه إلى ساحة قدره المشؤوم، إلى أن تسلل وحده كعادته في ليلة من ليالي انتظاره، و صعد إلى سطح منزلهم بالخفاء و بخطوات متأنية حذرة اِقترب من حافة السور، و أطل برأسه منه ينتظر بلهفة الطفولة البريئة و فضول أعمى على أحر من الجمر، فقط لرؤية قابض الأرواح، حتى تمكن منه الضجر و راح النوم بإرسال مساعده النعاس في بدأ الاقتحام

ليفرش غطاءه الناعم الحريري على جفني الصغير كالعادة و لكن كان هبوب رياح صرخات (النَوَّاح) الإسراع إليه و الأكثر قوة و ضراوة و قسوة على الفرخ الصغير، حيث ظهر انعكاس ظل (النَوَّاح) على الأرض من مسافة بعيدة جدًا عن بيت (سالم)، تحت أنظار ذاك المسكين و الذى كست الدهشة و الذهول ملامح وجهه، وهو يقبض بكفيه الصغيران على سور سطح منزله بقوة من هول ما يراه، و قد تيبس جسده الصغير و راح ينتفض بمكانه رعبًا من هول ما يراه فكانت تلك هي فقط البداية فى ظهور أثر هيمنته على ضحيته الصغيرة، فلم يشعر (سالم) بسرسوب المياه الساخن الذى اِنساب من بين قدميه و لا بجسده الذي اجتاحته رجفةً قوية و لا بقدميه التي أصبحت كالهلام لا تقدر على حمله ثقل جسده إنما ثبت بمكانه كخيال الظل لا يحركه شيء سوى الرياح يهتز معها گ عودًا من القصب الضعيف تعبث معه رياح الشر الباردة كما يحلو لها، فبدأ صوت (النَوَّاح) يعوي و يَنوح و يموج بين الإرجاء كما تموج و تتلاطم أمواج البحر الهائجة، و معه يتمايل ظله على الأرض كتمايل الأفعى على سطحًا ناعم وراء فريستها قبل الاِنقضاض، ويزداد طول ذاك الظل أكثر فأكثر و كلما زاد تمايله زاد طوله على الأرض، فغر معه فاه (سالم) فأتسعت حدقتي عيناه، حتى ظهرت فجأة أقدام فارعة الطول تشبه أرجل المعز تضرب الأرض بحوافرها بعزم ما لديها مصدرة ضجيجًا عاليًا يرج الإرجاء كطبول الحرب بسرعة البرق، تقترب من بيت (سالم)، لتقع أعين الصغير على جسد ضخم غريب يتشح بالسواد يقف أمام باب بيته، يغمغم بكلمات مبهمة بأصواتنا متداخلة لتداخل تلك الأصوات ببعضها بضعف نبرتها و قوتها مصدرة نبرة خشنة مدوية، تعلو و ينتشر صدى صراخها وسط السكون المميت، ليمط ذلك الجسد الخاوي نفسه و يمتد طوله إلى إن يصبح بقابلة وجه (سالم) المتيبس، أقترب منه أكثر حتى أصبح ملصقًا لفمه المنفرج عن آخره، ليصدح منه صوتًا كأزيز الأبواب عندما تضربها العاصفة، بهمس

أقشعر له بدن الصغير

(أاااانا نَوَّاح الليل أبو سبع رجلين......

و بدأ معه وجه (سالم) الصغير بالانكماش من جهة اليمين ببطء وبدأت لؤلؤة عيناه الصغيرتان بالجحوظ إلى حد الفرار من محجريهما، وراح فكه الرقيق بالإعوجاج بغتة عنوةٍ مبتعدًا بقوة مصدرًا صوتًا قاسيًا كصوت تكسير العظام عند سحقها، لتتعلى ضحكات (النَوَّاح) الصاخبة مستمتًّعا كعادته بالانتقام، ويأتي صباح اليوم التالي على أهالي قرية بجثة الصغير (سالم) المتخشبة كحال غيرها، تطفو على سطح الترعة تجري مع التيار باتجاه مصرب الماء راضخة رغمًا عنها، و ستستمر روح انتقام (النَوَّاح) في العبث والتلذذ بقتلهم.

تمت

("شيفون " مارس ٢٠٠٢)

لم يكن لقائنا الأول عاديًا بل لنقل أنه لا يوجد أي شئ عاديا قد يمت لها بصِلَة، كعادتي أسرق خطاي على الدرج حامله حقيبتي وأدواتي لم أنتبه وأنا اصطدام بها بقوة فصرخت بشدة بينما فرت هي لأعلى، أما أنا ظللت لثوانٍ استعيد رباطة جأشي وأعيد هندامي والملم أشيائي.

بعدئذ صرت أتوخّى الحذر كلما صعدت أو هبطت سلم دارنا خشية من أن أصاب بنوبة قلبية غير مرغوب بها، كان لقائنا الثاني مختصرًا ومتحفظًا تلاقت أعيننا فتوقفت لُأفسح لها الطريق تصعد ولكنها تسمرت تنتظر أن أنزل أولًا، فحسمت أمري وتحركت بحذر وتحاشينا بتعمد أن نتلامس عندما تشاركنا نفس درجه السلم أثناء مروري بجوارها.

كانت ذهبية العينين جميلة سوداء... نعم سوداء ذلك السواد الأبنوسي البديع اللامع يحيط جِيدها شريطة أنيقة بغير إبتذال يتدلى منه حرف "C" كبير.

طوال الطريق سرت أتخيل اسمها ماذا عن كارمن ربما كارميل أو كريستال.. ما عساه أن يكون أظنني أميل لأن أُسميها كارميل••يليق الاسم بلون عينيها كثيرا.

أصبحت لقائتنا شبه يومية لها طابع من التحضر كرفيقين قدامى اِعتادا إلقاء التحية والمُضِي كل منهما لطريقة بسلام..

بمرور الوقت اِعتدت وجودها وأحببته.

في إِحدى الليالي الشتوية سئمت من المُطالعة والدرس فأحضرت مشروبًا ساخنًا وشطيرة وخرجت أجلس على الدرج خارج بيتنا اِستمرت تلك القشعريرة التي تسري في أوصالي بفعل هذا الجو الساحر..

دقائق وجدتها أمامي تسألت: "ترى هل أرادت أن تتدثر بجدران دارنا أم تراها قد اِشتاقت لصُحبتي؟! لا أدري وجدتها تجلس بجانبي ووجدتني أُشاركها شطيرتي بهدوء اِكتفيت بما قدّمته لها ولم تطلب المزيد، أما أنا كنت جدًا راضيه عن تلك الرفقة الجديدة.. رغم رفض أبي وتحذيري من السماح بالمتسللين أمثالها من التسكع داخل بيتنا وتشديد الأوامر لحارس البناية إلا أنها كانت تجيد التخفي والتنقل برشاقة وحرية هذا ما زاد من غموضها وروعتها فلا أدري من أين أتت؟ أو ماذا تريد ؟".

ذات ليله سمعت أنينها كأنها تستغيث أمام ممر بيتنا سمعها أبي وهَمَّ ليصرفها لكنني توسلت له أن يدعها بسلام فهي لا تملك ضرا لأحد

ظلت تعود وتعود فقد أمنت غضب أبي و من رفضه لها بعد أن لمس أبي طيب مسلكها ولين طبعها وبديع صنعها.

اِنشغلت أنا بالدراسة فنَدُرَ لقائنا وأعلنت أمي حاله الطوارئ وأقامت معسكرًا جبريًا لي بالبيت لاقِتراب موعد الإمتحان لا اغادره إلا طلبا لاِستنشاق الهواء النقي لتصفية ذهني كل حين .

عادت كارميل بعد أيام ببطن عظيم الامِتلاء جاءت تحتمي بدارنا ليعصمها من طوارق الليل.. تتلمس جدارا تئن تحته وتتمخض بغير سوء•• سويعات واِمتلئ الممر بصغارها شملتهم أمي بعطفها و رعايتها و زاد لتطيب وتسد به رمقها ورمق صغارها.

أنجبت خمسة دَثَّر أبي اِثنان منهم بالورى فلم تهبهم الحياه قوة كالبقية، ولم يعيرهم الزمن سوى دقائق معدودة .

كان الحزن ترفا لاتملكه تلك المكلومة فهي تحتاج قوتها لتهبه للبقية ••• كان بينهم نسخه مماثله لها ذكر قوي أسود ذو عينان ذهبيتان.

في غسق الليل رحلت بصغارها بكبرياء مثير بعد ان تعافت واستعادت قواها، رحلت وتركت فينا ذلك الاِشتياق لصخبهم الحميم الذى أضاء لأيام ممر بيتنا .

وبعد أسابيع تلاقينا كانت وحيده مكسوة بالحزن وعَفِرة الطريق تنظر لي بعينان زجاجيتان خمدت جذوتهما تتوسلان أن أُجيب على سؤال أجهله... ولا أملك له جواب.

في جوف الليل تتوسد عتبه دارنا دون صغارها تتلو صلوتها الغامضة الحزينة

أصابنا الكدر جميعا

ما بالها؟!

ماذا أصابها ؟! أين ولت تلك القوية الجميلة

لم يكن لقائنا الأول عاديا ولكن فراقنا كان حزين شق نحيبها عنان السماء.

اِهتزت له في تلك الليلة كل الموجودات فهرولت إليها على الدرج تلاقت أعيننا يكللهما الدمع ما بالك يا صغيرتي ماذا دهاك؟

أظنها فهمت حديثي اِقتربت واِلتفت حول ساقي تحتضنه لبرهه تئن بوجل من ثم اِنتصبت وردت إليها قوتها ورحلت، لم تلتفت للخلف قط.

وفي الصباح التالي وجدت صبي صغير يحمل رزم من الورق المطبوع يلصقه بهمه على الحوائط و وجهات المحلات وأشجار حينا دون اِستئذان، اِقتربت لأقرأ ذلك الإعلان لعلها وظيفه او إعلان لحفل.

و كانت الصاعقة صورة كبيرة لكارميل كُتِب أسفلها فقدت "شيفون -Chiffon "

قطه ماو أصليه سوداء منذ ٩/٣٠

تبلغ من العمر: أربع سنوات

علامات مميزة: ذهبية العينان سريعة العدو حادة الطبع
مكافأة مجزيه لمن يجدها، الإتصال على رقم ***********

أصاب الفضول أغلب المارة، يقرءون الإعلان ويتناقشوا بشأنه ، كانت زوجة حارس العقار تقف بجواري وتهمس في أذني متسألة عن فحوى الإعلان فهي لا تجيد القراءة فشرحت لها بإيجاز فردت بغيظ يملؤه حسرة :كل هذا من أجل قطة يا لصغاري التعساء، لو كنت أعلم ماكنت فرطت بها ابدا.

سألتها بلهفه : أين هي ؟

قالت وقد أكلها الندم: لقد ولدت تلك البائسة وظلت لأيام عند عتبة داركم ثم اتخذت من المصعد القديم مسكننا وذات يوم ذهبت عنهم وقد تأخرت كثيرًا فظننت أنها رحلت وتركتهم فقمت بحملهم ووضعتهم على الطريق ولكنها عادت في المساء فذهبت لأعود بهم فلم أجدهم..

سَكَتت بُرهة وأردفت كمن يحدث نفسه شاعرا بوطئة الذنب ربما ضاعوا أو أكلهم فأر ومن ذلك الحين وهي تهيم تبكي صغارها.

اِكتفيت من ثرثرة تلك المرأة التي أورثت قلبي أشد الحزن لغلظتها وسوء صنيعها تركتها، ورحلت لا أملك من أمر مدامعي شئ فقد أَعْلنت الفرار من مقلتاي•

"ما أشد حزنك يا صغيرتي، ألم تكتفي الأقدار أن تعتصر قلبك يا مدللتي بفقد بيتك الدافئ وحياتك الأمنه ونَزَعَت عنك كل ما هو مألوف لك، وإضطُررت أن تحيى كباقي جنسك تقتاتي من خشاش الأرض وتلعقى جراحك و تلتها بعطية السماء (صغارك) فتفقديهم بسلوك أرعن.

فلم أجد بدا من أن أُهاتف تلك الأسرة التي فقدت كارميل فلهم الحق أن يعلموا بما آل إليه حالها.

بيد مرتجفة أدرت قرص الهاتف، على الجانب الآخر من الإتصال جاءني صوت عجوز مكدودا قصصت عليه قصتي معها استحلفني بالله أن أُصدق الحديث فقد سئم من كثرة العابثون والمستهزئون بحزنه طوال اليوم وتضليلهم له بدافع التسلية أو كسب النقود•

واستقر في نفسه تصديقي لما ذكرت له من تفاصيل تتطابق مع مدللته الصغيرة وطلب مني أن أتي لمقابلته فهو لا يقوى على القدوم لشكري ومكافأتي رفضت بأدب فا أنا لم افعل شئ يستحق مكافأة.

بعدها اِنتابني الفضول لأري من أين أتت تلك المخلوقة البديعة فأنا أملك بضع من سطور النهاية ولكني أجهل البداية.

ساقتني قدماي صَاحَبَها فضولًا إلى بيتٍ عتيقٍ بحي الزمالك اِستقبلني عجوز في العقد السابع هش وبش لرؤيتي دعاني للدخول التقط فضولي واحترمه فقد كللته بالصمت.

كان بيته راقٍ بحق لكن شبح الوحدة يسكنه بقوه تؤنسه بعض الصور المعلقة في أُطر صغيرة فضية بديعة النقوش تسرد حكايا هامسة عن سعادة سكنت هذا المنزل ذات يوم ، صوت معزوفة لشوبان تسري من "جرامافون" يرقد تحت لوحة زيتية نسخة طبق الأصل من "ارنولفينى" بورتريه ل " فان ايك ".

قلت مبدده ذلك الصمت الذي أتاح لي تأمل بيته الأنيق :

- "منزلك جميل"،

شكرني بإبتسامة عطوف، أردفت منتشية بالسحر حولنا:

- "أحب تلك المقطوعة إنها المقطوعة العشرين لشوبان أليس كذلك؟"،

قال وقد اِتسعت ابتسامته :

" بلي إنها بإسم ذكريات الماضي."،

اِقتربت من لوحه "ارنولفينى" تمتمت بخفوت :

"هذه المرة الأولي التي تتاح لي رؤيتها عن قرب لو علم أصدقائي لأقتلعوا مقلاتي من الجسد ".

ظل صامتا يتأملني

قلت :"أعتذر لوقاحتي يا سيدي".

قال مرتبكا:" مهلا يا صغيرتي لا عليك انا صدقًا مندهش، فلم يعد يأتيني زائرون منذ زمن ولاسيما ممن يملكون هذا الشغف بالمقتنيات العتيقة وقصتها، ماذا تعرفين عن تلك اللوحة ؟ "

أجبت بخجل:

" ليس الكثير يا سيدي.. فلنقل مثلًا أن اللوحات الزيتية كانت نادرة في ذلك العهد نحن نتحدث عن القرن الخامس عشر كما أنه اِنتهج مبدأ التفاصيل في لوحته

-" انظر"

قلتها وأنا أقترب وأشير بإصبعي بحرص:

"انظر إلى المرآة على الجدار الخلفي تعكس كامل الغرفة، بالإضافة لشخصين يقفان في بداية الغرفة رجح البعض أنها لوحه توثيق عقد قران وإستدلوا علي ذلك من الأخرين الذين يبدون كشهود، والكلب كرمز للوفاء كما أن الفستان التي ترتديه السيدة يشبه فساتين الأعراس في تلك الحقبة وذهب فريق آخر لفهم اللوحة بطريقه معاكسه وإن عدم ظهور الكلب في اِنعكاس المرآة ربما عمد" فان " أن يشعرنا أن الاِنعكاس الحقيقي للزواج ليس به وفاء" .

أفقت من الرحلة التي اِستغرقت دقائق أمام تلك اللوحة وجدت مضيفي المسن يتأملني بمحبة قائلا: "أحسنتِ دعينا نجلس فأنا لم أعد أقوي علي الوقف "

قادني إلى شرفة مزدانة بالأزهار، عجبت من بديع ألوانها وجمال نسقها تناولنا قدح من الشاي المعطر بالقرنفل عجبت له، ولكني اِستسغته بالأخير، قال بود :

"لنتحدث بما جئت من أجله، " شيفون " وهي ملك حفيدتي أو أغلى ماتبقى منها اِشتريته لها من مالكها الأصلي في إحدى رحلاتنا باليونان، لم تكن تبلغ من العمر شيئا عجبت لإختيارها ذلك النوع وذلك اللون ظننت أن الفتيات تحب "الشينشيلا او راج دول"، لكنها قالت أنها تبحث عن مخلوق مميز يشبهها وأسمتها "شيفون"، لكن صغيرتي رحلت منذ بضع شهور اِثر حُمى غامضة، تركت لي شوق لا ينتهي وصلوات ليلية أن ألحق بها سريعًا، وتلك القطة، يبدو أنه قد استوحشها غياب صاحبتها فرحلت تبحث عنها وضلت الطريق هذا كل شئ.. هل أرضيت فضولك؟"

قلت بأدب :

- "عذرا لإقحامي في حياتك، لقد كانت كارميل صديقة مميزة"،

وتداركت: " لقد اسميتها "كارميل" فوددت أن أعرف غاية لقائنا فأنا أؤمن أن لا وجود لصدف بتلك الحياه لقد تعارفنا لغايه وهدف ولقد تبينتها الأن بحديثنا هذا وأني لأحب أن تسمح لي أن أتواصل معك من حين لآخر سيدي، فربما تلك رغبة حفيدتك وكانت كارميل بيننا رسول"

فتبسم باكيا قائلا:

- "وأني لأرغب في ذلك بشدة ياصغيرتي ولابد أن أكافئ صنيعك، أطلبي تجدين"

كررت رفضي ولكنه أصر أن أنتقي تذكار من أشياء شيفون فانتقيت شريطة يتدلى منها حرفين" ch " كبير فطوقت به معصمي وشكرته ورحلت.

طول الطريق ألمس ذلك الشريط الذي ربطني بصداقة غريبة ومغزى جديد للحياة .

عدت لسابق عهدي ولازلت أخطو بحذر على الدرج لازلت أجلس على الدرج أنتظر.

في أحد ليالى مارس المنعشة جلست على الدرج أخفي إحدى الروايات داخل كتاب المطالعة كي لا تغضب أمي وجدت قط أسود قوي ذهبى العينين يصعد نحوي ويستكين بجواري، بُهتت أنفاسي محاولة أن أستعيد رشدي، لم تكن شيفون بالتأكيد، كان النسخه المماثلة التي تمخضضتها، ترى كيف وصل إلى هنا، ومن أرشده إلي؟!

وجدتني أستعيد قدرتي على النطق ببطء وقلت بسعادة:

"مرحبا أيها الصغير.. كيف أتيت إلى هنا؟ هل أرشدتك أمك كما أرشدتني إلى صاحبتها؟"

وفجأة.. شعرت بالشريطة التي تعانق معصمي، فما وجدت أطيب من عنقه مكانا لها ربطتها حول عنقه طائعا وقلت له :

"ما رأيك بإسم شوبان؟ أظن أنه يليق بك كثيرًا .. تبدو جائعًا، هيا نبحث لك عن شئ يؤكل، لن أعدك بالكثير ياصديقي، عليك أن تتسلل معي بهدوء فلو علم أبي بوجودك داخل البيت فتلك معركة كبيرة ونحن فيها مهزومين، وغدًا سترافقني لزيارة شخص عزيز سيُسر كثيرًا بلقائك، ولكن غدًا يوم آخر

تمت

(الرحّالة)

" إن المسألة مسألة نِسبَ ... فما هو ضئيل في نظر روتشيلد، هو الثراء الطائل في نظري أنا "

فيدور دستويفسكي

المقامر

مساحة من الورق ذات لون بُني مائل إلي الإحمرار، طولها ثمانية سنتيمتر تقريباً، وعرضها ستة عشر سنتيمتر، طُبع على وجهها صورة لمسجد عتيق يُدعي "مسجد أبو حريبيه"، ورقم خمسون بالعربية، وعلى ظهرها طُبع معبد فرعوني يُدعي "معبد حورس"، ورقم خمسون بالإنجليزية، لم تكن هذه إلا ورقه نقدية فئة الخمسون جُنيها، تقبع في يد شادي، ولكن إتيانها في يد شادي لم يَكُ باليسير وإنما خرجت من مطابع البنكنوت إلي أحد البنوك، ومنه إلي "أ" ومن "أ" إلي "ج" ومنه إلي "ب" ومنه إلي "د" ...... وهي الآن تقبع في يد شادي.

شادي طفل لا يمتلك من الأعوام سوى تسع، يحب والدته، يفتقد والده الذي توفي عنه منذ مُده ليست بقصيرة، قالت له والدته ذات يوم " إن صليت إسبوعًا كاملًا دون أن تُهمل صلاة واحدة؛ سأعطيك هدية "، وها هي هديته في يده، ينظر إلي الخمسون جُنيهاً في يده، يتذكر والده حين قال له وهما يجوبان الشوارع معاً

" هُناك في قديم الزمان كان بإمكان المرء أن يبتاع لحمًا وأرزًا وخضارًا بما لا يزيد عن جُنيهين "، يبتسم عندما يتذكر ما معه من ثروة، ثم يجفل ما أن يتذكر أن والده- كما قالت له والدته - صعد إلي الله ولن يرجع مرة أخرى، لا يتذكر شكله جيدًا، ولكنه يتذكر منه أشياء أُخرى، يتذكر صوته ، عطفه ، كلماته المُحمِسة، اِشتياقه لأيام كان هُناك شخصُ يُدعي " أم كلثوم " وآخر يُدعي " توفيق الحكيم ".

- شادي .

نادته والدته التي كانت جالسة في صالة المنزل، جلس إلى جوار والدته، وضعت يدها علي رأسه كدجاجة تضع أجنحتها علي رؤوس فراخها، شعر بدفءٍ يغمره، فأغمض عينيه، قالت له والدته بنبرة طفولية تحمل من الهزل أكثر مما تحمل من الجد :

- ماذا ستفعل بما لديك من مال؟

رد :

- لا أعرف ولكن .....

نظر إلي صورة والده المُعلقة علي الحائط، ثم أكمل قائلا :

- أريد أن أزور قبر أبي .

- حسناً يا حبيبي، اِذهب إلي النوم وغداً في الصباح سوف نذهب.

ابتسم، ربتت والدته علي كتفه، وبعد دقائق ذهب وذهبت معه الخمسون جنيه كي ينام، تركها - الخمسون جنيه - علي الكومود المجاور لسريره، ونام وهي لم تنم، فهي لم تُخلَق للنوم وإنما خُلقت للترحال!

❊ ❊ ❊

في صباح اليوم التالي ذهبوا ثلاثتهم إلي المقابر، هي في جيبه تستمد منه الدفء، وهو يقف بجوار والدته يقرأون الفاتحة، تمسح والدته دمعة إنحدرت من عينها، وبترت أخرى كانت علي وشك الإنحدار، لم تدمع عيناه، ولكن بكي قلبه بحرقه.

تشعر الخمسون جنيه نحوه بالشفقة، ما لهذه الورقة النقدية؟ كل إنسان يعيش حياة واحدة إلا هى، فهى تعيش داخل حيوات أشخاص عدة، تري معهم فرح، تري شدة، وتري رخاء، وتري أيضا طفل يقف أمام شاهد قبر أبيه.

بعد أن انتهوا غادروا علي الفور، ولكنه عاد هو وهي دون والدته، تلفت حوله، أخرجها من جيبه، وضعها علي القبر، و وضع عليها حجرًا صغيرًا.

سمع والدته تناديه ، فقال وهو يسير مبتعدًا :

- خذ هذا المال يا والدي، فأنا لست بحاجة إليه، لم أعرف حتي كيف أنفقه، ولكنك ذهبت وتركت كل شيء، حتي المال لم تأخذه معك.

قالها وهرول مسرعا نحو والدته، وهي .... باتت ليلتها في جوٍ مُتَّبر، جوٍ مرعب، جوٍ غير مُهيأ لأي شيء حتي لورقة نقدية، كيف تركها بين شواهد القبور؟ وما هو مصيرها؟ ولكنها تعرف أنه يحب والده لذلك فعل هذا، إن من يمتلك شيء ثمين لن يتخلى عنه إلا من أجل شيء أثمن.

وفي الصباح مر بها "عاشور" حارس المقابر، هذا الذي يشبه إينشتاين - في طريقة تصفيف شعره فقط- ، ما أن رآها حتي تهللت أساريره، تلفت حوله كمن سيقترف فعلًا آثمًا، تأكد من أنه لا يوجد أحدٌ ما يراه، أخذها، وضعها في جيب جلبابه التُرابي اللون، وأكمل في طريقه حتي اِستقر به الحال في غرفته المقابلة للمقابر، فكر في أن يحتسي كوبا من الشاي ولكنه لم يجد شايًا فذهب كي يبتاع شايًا.

❋ ❋ ❋

فرحت الخمسون جُنيها أشد الفرح، ذلك لأن مدة بقائها بحوزة عاشور لم تطول، وهي الآن ترقد في جيب "نذار" أو نذار باشا كما تعودت أُذنيه أن تسمع، رجلٌ وقورٌ، ممن يرتدوا البذلات طوال الوقت، حتي يُخيَل إليك أنه لا ينزعها حتي إثناء نومه، وجههُ أحمر اللون، شَعْرُ رأسه أبيض وكذلك ذقنه، وهذا لم يزده إلا هيبةً ووقارًا، يعمل مدير لإحدى شركات الأدوية، يملك ثروة ليست بقليلة، وهذا تقريبًا ما جعله مسارع في الأعمال الخيرية.

دخلت السكرتيرة بينما هو يجلس علي مكتبه الفخم، كان يُطالع بعض الأوراق أمامه، قالت له فور دخولها :

- هل أتممتِ كُل شيء؟

قالت :

- نعم، كما أمرت بالضبط.

ثم وَضَعَت على المكتب ملف أخرجت منه ورقة وراحت تقرأ:

- ثلاثون ألف جُنيه أُودعت لدي "دار المشَّد للمسنين"، عشرون ألف جُنيه لدي "مؤسسة المِصباح المُضيء"، وخمسون ألف جُنيه لدي "مستشفي ...."

قاطعها :

- وماذا عن "عَلِي" ؟

ردت :

- ينتظرك بالخارج .

- دعيه يدخل .

وبعد أن أنهي مقابلته ذهب وذهبت معه الخمسون جُنيه إلي حيث لا تدري، فهي تسكن جيبه وبجوارها بعض الأصدقاء اللذين جلبوا لها بعض الونس، نعم فأحيانًا يجلب الأصدقاء الونس ... أحياناً .

أخذت تتمعن فيما يحيطها من أوراق نقدية أُخرى، وتتسائل .. أين سيكون مصيرها؟ وهل ستجتمع بإحدى هؤلاء الورقات النقدية أم لا؟ و بعد مُدة مُدَت يد نذار إلى جيبه فأُخرجت بعض الورقات النقدية، كانت هي من بينهم، نظرت للمكان من حولها، إنها في محطة وقود ،

فرحت بمجرد أن نظرت إلى مضخة الوقود و وجدت الأرقام تشير إلي أن سعر ما وضع من وقود مائتى جُنيه، فأعطى نذار ورقة فئة المائتي جُنيه إلي عامل البنزينة، ولكن بترت فرحتها عندما أعطاها_الخمسون جنيه_ إلي عامل البنزينة قائلًا :

- هذه لك .

* * *

عاد "سيد" عامل البنزينة إلي منزله ، وفي (محفظته) بعض المال الذي لم يكن بالقليل بالنسبه له - له فقط - وهي بينهم، تشعر الآن ببعض الحزن لقِصَر مُدة بقائها مع نذار باشا، تتسائل :

كم ستكون قيمتها مع حاملها الجديد؟

نعم حاملها فهو مُجرد مُقتني مؤقت لها، وما هي إلا ساعات، أيام، شهور إن كان هناك شيء شاذ عن القواعد التي تعلمتها في حياتها، ومن ثم يجب عليه أن ينفقها، وتقع في يد مُقتنى مؤقت جديد.

أشمئزت عندما قارنت الهوان الذي تعامل به نذار معها بالاِهتمام التي لاقته من قِبَل شادي، كيف تعامل معها كل شخص بطريقة تختلف عن غيره.

اقرت (قيمة الشيء يُحددها مستخدم الشيء).

دخل سيد منزله فوجد الأفواه الجائعة في إنتظاره.

طلب من الفاه الأكبر - أي زوجته - أن تُحَضِر له العشاء.

أخبرته أنه لا يوجد شيء يُأكل في هذا الجُحر.

أخرجها من (محفظته) وقال لزوجته في ثقة رئيس دولة غربية :

- خُذى هذه وأجلبي لنا بعض الطعام .

تمت

(النخبة)

تحت الأرض.. وفي بقعة قاحلة من الصحراء، لا يبدوا فيها أي أثر للحياة.

يرقد مبني هائل علي اِمتداد آلاف الأمتار وبعمق عشرات الأمتار تحت رمال الصحراء اللافحة.

قبة كبيرة تظلل القاعة الضخمة المنيرة بشدة، و وسط كم هائل من الموائد المعملية الممتلئة بأنابيب الاِختبار وأجهزة الكمبيوتر مختلفة الأحجام والأشكال، وقف حشد صغير يحيط بأحد الرجال وقد علت وجوههم الفرحة.

- فخور بعملنا هذا، حلم البشر تحقق.

- وأنا فخور أن أعمل تحت اِشرافك وفي فريق عملك يا بروفيسور هشام. سنوات ونحن نسعى لهذا. مبارك لنا.

- بروفيسور ريتشارد وكل فريقي العظيم. آن لنا أن نرتاح الأن بعد سنوات شاقة من البحث والتجريب. اللي لقاء بعد عطلتنا الطويلة. لنجري المزيد والمزيد من الأبحاث الجديدة.

لابد أن أذهب لرئيس المعامل. لأزف له التأكيد على صحة آخر نتائج أبحاثنا.

سرت في الممرات، صاعدًا السلالم متفادي المصاعد معطيا لنفسي فرصة التغلب على فرحتي العارمة والتي تكاد تجعلني أرقص وأغني عكس شخصيتي المعتادة الوقورة.

أخيرًا. لا أمراض ولا أوبئة. عالم بلا مرض. صحة من لحظة الخلق حتى الموت. لا ألم ولا دموع ولا اِنكسار لقلب على أحبابه.

دلفت لغرفة رئيس المعامل. أعظم من أنجبت البشرية من علماء. بروفيسور(هيرتزل) اِستقبلني بنظرات قلقة، فواجهته بابتسامة باشة. تلقي الرسالة فأنفرجت أساريره واطلق تنهيدة راحة.

أخذت مقعدي أمامه:

- سيدي تم التأكد النهائي من صحة الأبحاث. كل التجارب النهائية أعطت نتائج مائة في المائة.

- وأخيرًا.. أُهنئك.

- التهنئة لنا جميعًا. لا أعرف كيف كان يمكن تجسيد أفكاري ونظرياتي لولا هذه المؤسسة وفريق العمل الرائع بها.

- يالها من رحلة شاقة. أذكر أن بداية الأبحاث كانت منذ ما يقارب ثلاثة قرون. وكانت تجري علي عينات عشوائية في كافة أرجاء الأرض. حتى أتي البروفيسور العظيم (فيتزجرالد) و وحد تلك الجهود وأسس مبنانا الخفي هذا، والذي كان يعمل كخلية النحل ٢٤ ساعة باليوم طوال سنوات ونحن ننتج العقاقير التي تساعد على تقوية الخلايا لمقاومة أي عطب أو مرض. فيحيا من يتم حقنهم بدون أمراض وبصحة وحيوية جيدة لعمر متقدم.

- إنني فخور بكوني جزء من هذا الكيان العظيم.

- أبحاثك وذكائك لفت أنظار مراقبينا في كل العالم. فعملنا بكل جهد لضمك لفريقنا.

- شرف لي هذا الاِنضمام. وإن كنت في البداية متخوفًا لان مؤسستكم ليست معروفة أو معلن عنها. ولكن أقنعني مندوبكم بالهدف النبيل الذي تسعون وراءه.

- وهاهي نتيجة سنوات من العمل تتوج بالنتائج الباهرة.

-آن الأوان للإنتقال لمرحلة التطبيق علي كل البشر بدلا من العينة المحدودة التي تمت عليها أبحاثنا.

تغير وجهه فجأة وعلته الدهشة:

- كل البشر؟! لا طبعا، لن يستفيد من أبحاثنا إلا النخبة. ممن يستحقوا فعلًا الصحة الجسدية والعقلية والعمر الخالي من الوهن لقيادة العالم.

_ماذا تقول يا سيدي؟ النخبة؟! ما لهذا درست وبحثت وإنقطعت عن الحياة الطبيعية وأهلي بالسنوات. أنا أعمل لخير البشرية جميعا.

صمت لوقت طويل. وقد أكفهر وجهه كمن يكتم اِنفجار الكلمات من فيه.

وبعد اِنتظار عصيب مني. هدء والتفت إليَّ:

فلندع المناقشة جانبًا الأن، لنا عودة لها، إما أن تقنعني أنا ومُمَولي المؤسسة أو نقنعك نحن، لكن من هذه اللحظة بدأت عطلتك، وبعدما تعود نتناقش في كل الأمور العملية القادمة لنجعل المشروع في حيز التنفيذ الفعلي.

حييته وأنا كلي ضيق، فلم أتخيل أبدا أنى أعمل تحت امرة مؤسسة يقودها عنصريون أو معتنقي ديانة أوثاناسيا.

وتوجهت لغرفتي أرتاح قليلًا قبل أن أتابع برنامج الرحلات المقترح علينا أنا وفريقي سواء كمجموعة أو كأفراد.

العطلة طويلة.. ولا أعرف هل من المفيد أن أزور أهلي بعد هذا الإنقطاع الطويل؟ أم التزم جانب الترفيه فقط؟

اِرتحت على سريري في الغرفة التي أصبحت ملاذي في الراحة لسنوات عديدة. كيف يخطر لعالم عظيم ومؤسسة كتلك التي أعمل بها بكل تلك الإمكانيات أن تقصر جهودها على قلة قليلة من البشر.

غفوت.. وأفقت علي "أولجا" صديقتي توقظني:

- هيا لنبدأ الرحلة.. أرغب بشدة في زيارة بلدك العربية. ومن هناك ننطلق لأي بلد نرغب به. أمامنا برنامج حافل.

تركت لها ترتيب كل شيء، عقلي مكدود من السهر والتفكير والتجريب، أنا ملك يديها الأن فلتأخذني أينما تريد.

وبالفعل تمت إجراءات سفرنا بسهولة ويسر.. لقد تطور عالم السفر في السنوات التي اعتزلت فيها للعلم والتجربة تقدم هائل. لا أريد تذكر عذابات السفر القديمة.

اِنغمست بحالة النوستالجيا التي سيطرت علي بمجرد أن عرفت بقرب هبوط الطائرة علي أرض وطني.

هالني التلوث الشديد بالجو وأحسست بالاِختناق من هذا الضباب واللون الرمادي المنتشر.. حمدا لله أن الفندق تابع للمطار، تنفست الصعداء عندما أنعشني هواء الفندق المكيف.

لم تتركني "أولجا" للراحة، فقط أودعنا حقائبنا بالغرفة وجرجرتني حرفيا للخارج. قالت أن السائق لديه خريطة لكل مزاراتنا، ما علينا إلا التمتع.

ولكن أي متعة! أهذه بلدي؟ ما هذا الزحام وهذه الضوضاء؟ ناهيك عن التلوث الهوائي والسمعي والبصري. صدمة ما بعدها صدمة ما وجدته بالحي الذي شببت فيه؟ اِحترقت كل نوازع النوستالجيا لدي. تلوث في كل شيء، ضجيج في كل ركن، وجوه مكفهرة.. أين البسمة والطيبة؟ أطفال كما الشياطين، أناس تود العراك، بل لقد شاهدت معركة بالأسلحة النارية والأسلحة البيضاء، رجال ونساء لا أعرف من أي غابة متوحشة خرجوا، ألفاظ نابية تقززت منها، قمامة في كل ركن، لا مظهر واحد من مظاهر الجمال، رطنت أولجا بكل اللغات التي تعرفها وكلها تعني توحش.. متوحشين.. وجرجرتني كالعادة للعربة.

لم أصدق نفسي.. ماذا حدث وأي بلد تلك؟ وأين الناس الذين تركتهم من عشرات السنوات؟!

حاولت أولجا أن تفرج عنا بمتابعة التلفاز والذي سرعان ما أغلقناه حروب وقذارة وتعارك وأفلام تصيب بآفات نفسية، حتي الجرائد عافتها نفسي من هول ما بها .

أصدرت أولجا فرمانا ان نزور بلاد عربية أخرى، لم أعارض فأنا في صدمة نفسية، زادتها ما شاهدته في باقي البلدان وكأن هناك اِضمحلال لكل شيء في بلادي العربية الحبيبة، فقر، سوء خلق، عراك وحروب، دماء تسفك بسهولة، أين البهاء والثقافة ونخوة العرب والطيبة؟! حتى الطبيعة البديعة أصبحت باهتة تعاني كأن تبدل أخلاق وطباع الناس أصابتها بالمرض.. فشاهت.

ولم نسعد في جولتنا الأسيوية.. نفس الزحام، التشوه، تكالب مادي، وجوه مكفهرة ودمار للطبيعة البشرية والأرض.

أكان الحال مختلف في بلاد التقدم والحضارة؟

أوروبا! الثقافة والجمال رحلوا عنها، اكلتها الثورات تحت الضغط الإقتصادي وقلة الموارد.

وأمريكا بلاد الحرية.. اِضمحلت بعدما ظهرت شراستها ورغبتها في تكبيل الشعوب وإستعمارها ماديا ومعنويا. وكأننا عدنا لعصور ما قبل الحضارة خطف وقتل وإنتهاك حرمات من أجل الظفر بالمكاسب المادية وملء البطون وشهوة السيطرة والاِمتلاك.

أُصبت بأعراض اِكتئاب ورفضت البقاء علي أي بقعة فوق سطح الأرض.

أين معملي ورفاقي ينقذوني من هذا التشتت الفكري والاِكتئاب المقبل علي بخطى حثيثة.

عدت وأولجا بعد شهور لمؤسستنا، دلفت لغرفتي، أريد الاختلاء بنفسي وأنا في حيرة أكان ما مر بي كابوس إستمر بضع ساعات؟ حتى أنى سألت أولجا عندما أيقظتني:

- أكل ما رأيته حقيقة؟

وأجابتني بسمتها الحزينة بأن نعم.. واكتفيت وإياها براحة في المنتجع التابع لمؤسستنا. حتي أريح أعصابي وتخف عني أثار ما شاهدته من دمار لعالم كنت أظنه.. وخيب ظني.

في إحدي تأملاتنا أنا وأولجا سألتني .

- أسمعت قبلًا عن عالم ما تحت الأرض؟

- أ تقصدين ما روي في قصص "جول فيرن" وغيره، لا دليل علي ذلك، إنه خيال روائيين.

- ولكن "جول فيرن" وغيره تكلموا عن رحلات للقمر وأشياء أخري كثيرة وتحققت.

- أ تصدقين أن هناك من يعيش تحت الأرض؟ ومن هم؟ وكيف عاشوا؟ ولمَ؟

- ألمْ تسمع عن الزواحف .. الرماديون.. النخبة ؟ معاهدة جريادا؟

- أ يعقل أن عالمة مثلك تؤمن بمثل تلك الترهات؟ لقد سمعت بهذا طبعا فهو من زمن بعيد قبل أن أتي للمؤسسة بسنين عديدة، أن شنايدر الذي روج لهذا ما هو إلا مهووس شهرة، أتعقل ترهاته عن وجود مخلوقات ميثالوجية عاقلة كالبشر تماما؟ وليسوا بشرًا و يفتقروا للمشاعر الشخصية واستشعار مشاعر الغير، وهم في تكاثرهم يلجئوا للاستنساخ مما يضطرهم إلى إيجاد مصادر خارجية من الحامض النووي للحفاظ على جنسهم من الفناء؟ فيخطفوا البشر ويجروا التجارب على أنظمتهم الإنجابية والتناسلية وأحيانًا يزرعوا بالإناث جنين من أجل إنتاج سلالة جديدة من الرماديين لهم القدرة على الإنجاب؟!

وبالمقابل تستفيد الحكومات التي تعرف أسرارهم كالولايات المتحدة ومن قبلهم هتلر والحزب النازي بتزويدهم لها بأسرار العديد من التقنيات والتي معظمها يوظف لأغراض عسكرية ومنها تكنولوجيا الأطباق الطائرة والعديد من الطائرات والأسلحة والسفر عبر الزمن.

وأن مع مرور الوقت بدأ سكان جوف الأرض من الرماديين يخالفون الأعداد المنصوص عليها ضمن الإتفاقية ثم توقفت تماماً عن إعطاء أسماء البشر الذين يتم إجراء التجارب عليهم مما يعني خرق بنود المعاهدة مما اِعتبرته الولايات المتحدة إعلانَ حرب عليها

وهناك من روج أن سكان باطن الأرض اِنتصروا وتولوا رئاسة أكبر البلدان خاصة بعد مقدرتهم العظيمة علي التخفي في شكل بشر؟؟هراء.. هراء..

- شنايدر وأتباعه وهم كثر يقولون: (إن هناك دلائل أكثر على وجود ذلك العالم الخفي بجوف الأرض وأن هناك مناطق تعد أبوابًا لهذا العالم منها سيبيريا والأهرامات في مصر والمكسيك والكثير من المعالم الكبرى حول العالم) .

- هذا غير علمي بالمرة.. أنا عالم ولا أقتنع إلا بكلام ثقة.

- والسماوات السبع والأراضي السبع.. أليس هذا موجود بكتابك المعظم؟

- أخرسني ما قالته. وبدأت دوامات تأخذني. أيعقل هذا؟ وما قصدها بالنخبة؟ تلك الكلمة التي قالها لي رئيسي في آخر لقاء بيننا.. النخبة التي تعمل مؤسستنا من أجل خدمتهم.

❊ ❊ ❊

في غرفة رئيس الأبحاث. يجتمع وأولجا:

- ما الأخبار؟

-تم ما أمرت به ياسيدي.. لم نستطع طبعا استخدام طريقة(ام كي الترا)) للتحكم والسيطرة علي عقله لخوفنا علي قدراته العقلية ونبوغه الذين نحتاجهما بشدة، لقد أوحينا له عن طريق أجهزة النوم والأحلام أن العالم الأن تسوده الوحشية وإن ما من ركن منه إلا تحول إلى بشر متوحشين همجيين، كان الحلم المبرمج الذي شاهده واقعي جدًا، حتي أنه أصيب ببعض الخدوش في إحدي المعارك بأسيا، وأصاب كاحله التواء أثناء هربه من بعض البلطجية في شارعه القديم، وما زال يعاني من شرخ في ضلع من أضلاعه في معركة أخرى.

_ كان لابد من هذه الرحلة الوهمية حتي يفيق من أحلامه الوردية البريئة. خدمة وحياة كل البشر بلا أمراض!.

نحتاج عقل هذا الرجل بشدة، لديه أفكار نحتاجها من أجل مستقبلنا ولكي نقضي تماما على حثالة البشر، لقد أمننا من المرض تماما، وتجاربه أفادتنا في تعظيم قدرتنا على التكاثر بدون الحاجة إلا لقلة قليلة من خلايا البشر، ونريد إقناعه بعمل معاكس نسيطر به تماما علي كل الأرض ليسود جنسنا.

- المرحلة القادمة وبعدما يتوافق عقله مع آرائنا سنعلن له أن مركزنا ليس الوحيد، بل هناك مراكز عدة منها ما هو عكس نشاطه هنا تماما، منها اِبتكار أمراض وأوبئة جديدة تهلك ملايين البشر في شهور معدودة، بعض الجرائد والأفلام المفبركة ستغير من تفكيره تمام ليكون خادما للنخبة.. ومحب لنا أيضا.

تعالت الضحكات وتحول كل منهم اللي زاحف رمادي غريب المنظر.

تمت

(مكيدة الليل)

إنها إحدى القري الإنجليزية النائية الجميلة في القرن الرابع عشر قرية محاطة بالعديد من مزارع الفلاحين البسطاء تزور القرية كافة أنواع الطيور نظرًا لجمال القرية و وفرة الغذاء بها للبشر و الحيوانات على السواء، لقد شهدت القرية اِزدهارًا غير مسبوق فى عهد عمدتها "الكونت مارك "الذى نهض بالقرية على جميع النواحي كما كان محبوباً من شعبه و أهل قريته لقد كانت القرية تحت ظله قرية تضرب إليها أكباد الإبل.

و في إحدى الأيام يدخل مساعد الكونت "إدوارد "عليه في الصباح الباكر مسرعا و القلق بادياً على وجهه:

الكونت: ماذا بك يا إدوارد؟

إدوارد : سيدي لقد اِستيقظ المزارعون اليوم على حريق نشب في جميع مزارعهم.

الكونت: تباً!! ماذا تقول؟ و ما سبب هذا الحريق؟

إدوارد: لا أحد يعرف يا سيدي لكن هناك مزارع واحد يقول أنه شاهد كل ما حدث لكنه يرفض الحديث إلا أمام حضرتكم

الكونت: حسناً و ماذا تنتظر أيها الأخرق أحضره إلى هنا حالًا.

إدوارد: أمر حضرتكم مجاب يا مولاي

يغيب المساعد لساعة قضاها الكونت في النظر إلي القرية و مزارعها المحترقة من شرفة قصره الذي يقبع فوق تلة متوسطة الإرتفاع حتي يستأذن المساعد في الدخول فيسمح له الكونت بالدخول

إدوارد: ها هو المزارع سموك، فيدخل خلفه رجل في الخمسين من عمره لكنه قوي البنية عريض المنكبين يبدو علي ملامحه الذعر بعض الشيء

الكونت: أخبروني أنك تأبى الحديث إلا في حضوري.. و ها أنت في قصري أخبرني ماذا حدث؟ من ذاك الداعر الذي تجرأ على أراضي الكونت مارك

المزارع: مولاي أخشي الحديث فتتهمني بالجنون و أنا عجوز لي من الأولاد أربعة أخشي عليهم الضياع

الكونت: لا تخف أيها الرجل تحدث و أخبرني من تجرأ علي أرضي

المزارع في توتر: ل ..ل ..ليس هناك أحد يا سيدي

إدوارد في غضب: هل تراوغ الكونت أيها الأبله، ثم يلطمه علي خده لطمة قوية تتساقط علي أثرها الدماء من أنف المزارع لكن الكونت يمنعه بإشارة من يده :

الكونت: عذرًا أيها الرجل على هذا التصرف لكنك تتلاعب بي.

المزارع: أقسم لك يا سيدي أنه ما من شخص قد أشعل النار في الأراضي، لقد كنت في بيتي القريب من الأراضي و كنت أنظر من نافذة بيتي فإذا بكتلة من النار تخرج من بطن الأرض أخذت تنتشر في جميع الأراضي، أقسم لك يا مولاي أنها خرجت من بطن الأرض و كأن الأرض قد ولدتها للتو.

ينظر الكونت في دهشة إلي المزارع و هو لا يصدق ما قد وصل لأذنه من حديث ذلك المزارع يأبى عقله التصديق فيشير له بالخروج لكن المزارع استأذن الكونت في أن يخبره بأمر أخير فيسمح له الكونت بذلك

المزارع: سيدي أعتقد أن للأمر علاقة بك أنا لا أقصد أي إهانة لعظمتكم و لكن في وسط الحريق كان هناك صوت يتردد من الفراغ يقول : " لقد حان الوقت أيها الكونت...لقد حان الوقت.".

الكونت ممسكًا المزارع من تلابيبه في عنف : ماذا تقول أيها الفاسق يبدو أنك تصر علي جلب الشر لنفسك

هنا تدخل الكونتيسة "ساتشل" زوجة الكونت مسرعة و هي تقول:

مولاي اِترك المزارع و شأنه أنه صادق لقد سمعت ذلك الصوت أيضا، هنا تتسع حدقتي عين الكونت لو كان المزارع يكذب فهل الجميلة ساتشل تكذب أيضاً؟ و تري لأي شيء حان الوقت؟

ساتشل: ليس أنا فقط يا مولاي بل معظم القرية اِستيقظوا مساءًا علي ذلك الصوت المفزع و يمكنك أن تسأل من تشاء

الكونت مارك : ماذا ؟ من ذاك الملعون الذي يتلاعب بي؟ أتركوني و شأني الأن

يغوص الكونت في تفكير عميق الكثير من التساؤلات تقفز الي خاطره دون سابق انذار.. تري من يتلاعب به؟ كيف سيتدبر أمور قريته و جميع أراضيها قد اِلتهمتها النار دون رحمة؟ كيف سيسدد ضرائب المملكة و قريته تمر بمحنة عظيمة؟ و من شدة أرقه و إجهاده الذهني يغوص الكونت في نوم عميق علي مكتبه لا يشعر بما يدور حوله و تلك الظلال التي تتحرك في القصر بغفلة منه و يظل نائمًا حتي يستيقظ فزعًا علي صرخات نسائية مرتفعة تأتي من غرفة الخدم بقصره فيتقدم إليها مسرعًا برفقة حرسه فيجد ما لم يكن يتوقعه بتاتا جميع النساء في حالة هياج و بعضهن يتقيأ و البعض الأخر يسيل مادة بيضاء لزجة من أفواههن و كأن جميعهم أصابتهم نوع من حالات الصرع ظل يتخبطن بشدة و قد اِنقلبت أعينهم حتي ظهرت أعينهم بالبياض فقط و قد تمزقت ملابس بعضهن حتي كُشفت عن عوراتهن، يتجمع جميع من بالقصر ليشاهدوا ذلك المشهد المريع، لا يصدقوا ما تراه أعينهم، و في ظل دهشة الجميع و عدم تصديقهم تندفع إحدى الخادمات لتمسك بعنق الكونت صارخة في وجهه بكلام بلغة غير مفهومة ثم تنطق

بالإنجليزية بصوت أجش لا يصدر عن امرأة :

"لقد حان الوقت أيها الكونت..تم العقد و حان الوقت"، بعدها تسقط الخادمة مغشي عليها في حالة من الذهول التى تصيب الجميع و تتبعها جميع الخدم التى أصابتهن حالات الصرع، وعلى حين غرة ينطلق عواء شديد يصم الأذان في شتَّى بقاع القرية و كأن قطيع من الذئاب قرر مهاجمتهم في نفس اللحظة، لكن الغريب أن الصوت ينبعث من الفراغ الصوت قوي للغاية لا طاقة للذئاب علي العواء بهذه القوة، لم تتمالك الكونتيسة ساتشل أعصابها و سقطت فاقدة الوعي، إن ما يحدث يفوق كل وصف، أي لعنة قد حلت بقريتهم تلك ليس الكونتيسة ساتشل وحدها فكل منازل أهل القرية ما بين الصراخ و فقدان الوعي لقد تملك الخوف من الجميع .

في صباح ذلك اليوم المشؤوم يجلس الكونت في مكتبه لا يصدق ما يحدث الأمر، بدأ بحريق الأرض من الفراغ ثم حالات الصرع الجماعية و كلام تلك الخادمة ثم عواء ينبعث من قلب اللا شيء ماذا يحدث؟ ولأي شيء قد حان الوقت؟ و ما العقد الذي تحدثت عنه الخادمة؟ يدخل أحد حراس الكونت على عجل قاطعًا حبل أفكار الكونت:

الكونت: كيف تجرأت علي الدخول هكذا دون طلب الأذن أيها الوغد؟

الحارس: معذرة يا سيدي و لكن الأمر لا يحتمل التأخير، إن القرية ملعونة يا سيدي في الليل جن جنون الحيوانات جميعها في آن واحد لكن لم يجرأ أحد علي الخروج خوفًا من الزئير و في الصباح خرج المزارعون فإذا بهم يجدوا جميع الحيوانات قد فُصِلت رأسها عن جسدها و شُقت بطونها و أُخرجت أحشائها و أعينها محترقة في مشهد لن يتكرر، ليس ذلك فقط فالطيور كانت تسقط ميتة من السماء و كأنها تمطر طيور فارقتها الحياة

الكونت: ماذا؟ أخبرني أنك تمازحني؟ أي لعنة تلك التي قدمت إلينا

الحارس: إنها اللعنة القديمة يا سيدي ...

الكونت و قد استشاط غضبًا : ماذا تقول أيها الملعون سأقتلك أيها الوغد

الحارس في ذعر: ليس كلامي بل هو كلام أهل القرية، لقد خرج مجذوب القرية يجول صارخ أنها لعنة القدماء، و كان كلامه كعود الثقاب الذي أشعل النيران في أكوام الحطب، فقفز كلام الأجداد إلي الأذهان عن تلك اللعنة التي توارثوا حكايتها جيل بعد جيل عن ملك يتعاهد مع الشيطان ليحصل علي القوة و النفوذ لفترة بعدها يحرق الشيطان أراضيه و يأكل حيواناته و يجول و هو يعوي، و قد ثارت ثورتهم يا سيدي.

الكونت تاركًا الحارس و تتسع عيونه في دهشة و حيرة: تبا لكم جميعا تبا لكم، أنكم تكيدون المكائد بي لقد جن جنونكم

الحارس: سيدي لقد خطب فيهم النبيل" ويليام" عقب تكاثر أحاديثهم و حثهم علي محاكمتك و القيام بثورة علي جلالتكم، الأمور تخرج عن السيطرة، إنهم في طريقهم إليك و علي رأسهم النبيل "ويليام"

الكونت : ويليام؟ ابن عمي أنا يطلب منهم محاكمتي؟ هل اِنقلب الجميع ضدي؟! تبًا للجميع أنا الكونت مارك يريدون محاكمتي!! سأقتل من يقترب مني، سأقتلكم جميعا

و فجأة يسمع الكونت و حارسه أصوات هتافات تقترب، فينظر الكونت من النافذة وقد اِرتعدت فرائصه، الجميع أمام قصره، إنهم يحاولون اِقتحامه الجميع يسيرون خلف ويليام، ذلك الجشع المكار، و بالفعل يستطيعون اِقتحام القصر و دخوله باحثين عن الكونت مارك حتى دخلوا عليه مكتبه و يتقدم ويليام للقبض علي مارك في مشهد مسرحي وكأنه أحد المشاهد التي كتبها شكسبير إلا أن شكسبير لم يكن قد ولد بعد

ويليام: لقد تم القبض عليك يا مارك و ستتم محاكمتك في القريب العاجل علي تهمتك تلك و استعانتك بالشياطين، و حتي يحين وقت محاكمتك سيتم إيداعك السجن.

و قبل أن ينطق الكونت مارك يمسكه أثنان من الحرس و يسحبونه و سط صرخات

مارك الغير مسموعة من كثرة الهتافات و الشتائم التي وجهها الأهالي للكونت مارك.

في ساحة القرية الكبيرة تم نصب مسرح و عليه مكتب ضخم يجلس عليه قاضي ذو جلال و وقار و بجانبه النبيل ويليام و بجانبه وضع قفص فيه الكونت مارك و قد تجمع مئات الأشخاص في الساحة ليشاهدوا محاكمة الكونت مارك و في وسط المحاكمة تتقدم الكونتيسة ساتشل لتصعد علي المسرح و تقف أمام القاضي و تعطيه ورقة ما

ساتشل: تفضل أيها القاضي

القاضي: ما هذه الورقة أيها الكونتيسة؟

ساتشل: أنها ورقة وجدتها في أغراض مارك و كان لابد أن تَطّلع عليها أيها القاضي.

يفتح القاضي الورقة فيجدها ورقة قديمة يميل لونها الي الاِصفرار عليها كتابات باللون الاحمر و مختومة في أخرها و بها عدة رسومات غريبة يقرأها القاضي بصوت عالي :

"أنا السلطان سيتن قبلنا اليوم بالاِتفاق و العهد الذي يخص" مارك ويل" و الذي هو لنا و عليه القيام بما تعاهدنا عليه، حب النساء، زهرة العذارى، الشهوة الجنسية، القوة، السلطان، و تبعا لوعده سوف يداوم بإعتزاز علي الصخب و المجون و ممارسة الزنا يوميا مع واحدة من خدمه، و أن يقدم ختم الدم و بهذه العهد يحكم عشر أعوام علي أرض الإنسان، و بعده تحرق أراضيه، و يلهو الجان بحيواناته، و تصاب بالصرع كل من زني بها، وتاليا ينضم إلينا في خطيئة الحرب ضد إرادة الرب، حفظ في الجحيم، في مجلس الشياطين ...الشيطان سيتن"

هنا تخر أفواه الحشود من هول المفاجأة و ترتعد فرائص مارك الذي أدرك يقينا أنه ميت لا محالة فيصرخ في ساتشل " يا خائنة.. قتلتيني يا داعرة"

القاضي : يتم معاقبة مارك علي ممارسته الشعوذة و معاهدته مع الشيطان سيتن و ممارسته الزنا بالحرق حيا، ليكون عبرة لكل من لا يعتبر، و يمارس النبيل " ويليام" مهمته

كملك لتلك القرية و منقذها.

يتوسل مارك لهم و يبكي، لا تقوي قدميه علي حمله فيخر ساقطًا، و بالفعل ينفذ الحكم و تشعل النيران و يلقي بها مارك وسط شهقات الجميع، و يلقي به في النيران فتتعالى صيحاته و يتوالى نحيبه و يصرخ كأن صوته قادم من أعماق الجحيم إلى أن يصير جثة سوداء متفحمة فينصرف الجميع فرحين بالتخلص من تلك اللعنة

في اليوم نفسه يقطع سكون الليل صوت ضحكات عالية قادمة من غرفة نوم الكونت مارك بقصره، إنها الكونتيسة ساتشل و قد تجردت من جميع ملابسها و تنام عارية بين أحضان النبيل ويليام الذي يعتليها و قد اِندمجا سويا في بحور العشق و الهوي، و يضحكا سويا بصوت عالي

ويليام: أخيرًا قد تخلصنا من مارك و حكمه، و اِنفردنا بالحكم يا عزيزتي، و اِنفردت انا بك أيتها الحسناء.

ساتشل: لقد ذهب مارك بلا عودة يا مولاي، و الملك أصبح بيديك، و أنا أصبحت خادمتك المطيعة، لكن كيف فعلت كل ذلك أنها خطة جهنمية لا تخطر ببال الشيطان سيتن نفسه؟!

ويليام ضاحكا: أنها أساطير القدماء ملهمتي، في الليل حرقت الأراضي، و قد أغريت المزارع بالكثير من المال ليشهد أمام مارك زورًا و طلبت منك تأكيد كلامه حتي يثق مارك في كلامه، و في الليلة التالية أمرت جنودي بالتسلل لغرفة الخدم و إعطائهم مادة تسبب أعراض تشبه الصرع تم اكتشافها حديثا، و اِتفقت أحد الخادمات أن تفعل فعلتها بمارك ثم اِنطلق رجالي في قتل الحيوانات و جعلوا الذئاب تعوي في أبواق خاصة، و قمت أنا بكتابة تلك الورقة حتي تثبت التهم، و هكذا تخلصنا من ذلك الحقير يا جميلتي، لقد كانت السيطرة علي الحكم حلمي منذ سنوات، و كنتِ أنت دافعي، ففي كل مرة ترتمين في

أحضاني كان كرهي له يزداد كلما لامست جسدك الناعم وكأن فينوس صنعته بنفسها بعناية، شوقي لك يكبر

ساتشل وهي تقبله في حرارة: الأن صرت ملكك بمفردك دون مارك الوغد

يضحك الإثنان عاليًا في مجون ويندمجا سويًا، ولا يشعرا بطيف مارك الذي دخل الغرفة عبر الحائط، وقد اِحترق جلده حتي ذاب، وكاد العظم أن يبرز في بعض المواضع و عيونه تحولت للون الاحمر، يندمجا سويًا لدرجة تجعلهما لا يشعرا بتقدم مارك منهما شاهرًا سكينه عالية .

تمت

(حب ومطر)

كل شيء حولها، يمضي فى رتابة سخيفة، حتى دقات قلبها كل دقة بها تشبه الأخرى، لا شيء بها، ارتدت معطفها الثقيل وهبت قاصدة الطريق، حيث المطر.

سارت بخطى سريعة لا تعرف أي جهة تذهب إليها لتجد قدمها قد حملتها إلى شاطئ البحر، وقفت محتضنة نفسها بيديها، غارقة فى أمواجه ناظرة بعيد كمن يبحث عن شيء.

نظرت حولها تتأكد من أن لا أحد مجنون غيرها على الشاطئ، وقد اِطمأنت فلا أحد هناك، خلعت معطفها ملقية به فوق الرمال، ومن خلفه وشاح حريري مزركش الألوان، كانت قد أخفت شعرها خلفه، لتترك جديلتها تغتسل بماء المطر ورزاز الأمواج، وقبل أن تلامس قدميها المياه؛ وجدت من ينزعها من كل شيء، ممسك بها من تحت ذراعيها، سمعت دقات قلبه قبل أن تسمع دقات قلبها، أغمضت عينيها حينما لامست أنفاسه الدافئة ملامح وجهها الرقيقة، ضمها إليه أكثر وأكثر حتى توحدا صار كلاهما يسكن الآخر، همت ان تتكلم.. تنطق. تهمس بشيء. أي شيء، لكنها لم تستطع أن تفعل أكثر من أن تتكسر بين يديه.

وضعت رأسها فوق كتفيه، عزف المطر والموج معاً قطعة موسيقية رقيقة، تراقصا عليها، ذاب بين نغماتها.

سافرا بعيدًا عن الأرض، توقفت الأرض عن الدوران، حتى عقارب الساعة تعطلت، لم يشعرا بالبرد، كل ما شعروا به دفء وأمان لا حدود له.

أخرجها من بين ذراعيه برفق، نظرت إليه كمن يريد أن تحتفظ بملامحه على ماء عينيها، وضع قبلة فوق جبينها، تركت له كفها يتوه بين كف يديه، صارا سويًا دون كلام، وإن كان هناك عشرات الكلمات التي قيلت وروت دون حروف تقال.

مر الوقت وكلاهما مطمئن بوجود الآخر، مستمد منه الدفء، تتمنى لو نطق، يتمنى لو روت له ما بداخلها، في ثانية قرر أن يكسر هو حاجز هذا الصمت.

خرج صوته دافئ حنون يقول:

ما أسمكِ؟

- أسمي نقاء.

- نقاء.. انتظري قليلًا، اتركيني أتنفسه كما تنفستكِ.

- ما اسمك؟

- إسمي فارس

- فارس! تلك هي المرة الأولى التي أقابل بها فارس حقا.

- ماذا جاء بكِ إلى الشاطئ في مثل هذا الجو!؟

- لا أعرف حقا، كنت كمن تبحث عن هواء نقي.

- وأنت ماذا جاء بك إلى هنا في مثل هذا الجو؟

- إن قلت لك هل تصدقيني؟

- ولما لا؟

- جئت كي أنتحر..

توقفت فجأة ناظرة إليه بعين جاحظة، أومأ برأسه إليها وقد علت شفتيه ابتسامة، جعلتها تهدأ ليكملا سيرهم معا قائلة:

هل جننت لتفعل ذلك، تنتحر؟!

ضغط على كفها الساكن بين راحته قبل أن يجيب قائلًا:

عندما تفرغ حياتك من المعنى، وتجدين ليلك يشبه نهارك، وأمسكِ يشبه يومك، لن تتعجبِ إن طرأت عليكِ فكرة الانتحار.

- لكن الحياة جميلة.

- الشيء الوحيد الذي يعطي الحياة معنى هو الحب يا نقاء.

- الحب!؟

- نعم الحب الذي يروي عروقنا ويعطينا ألف سبب كي نحيا، الحب الذي يجعلنا كالأطفال أنقياء.

- وان لم نجده؟

- ستحيين حياة بلا روح بلا هدف.

- هل لي أن أمضي الآن؟

- إلى أين ستذهبين؟!

- سأعود إلى البيت

- لماذا؟

- لأنني يجب أن أعود..

- بل أبقي قليلًا

- عليَّ أن أعود، لكن أنت ماذا ستفعل؟

- لا أعرف حقا، اِذهبي أنتِ ولا تشغلي بالك بي.

وقفت تنظر إليه باحثة عن كلمات ترسلها إليه، لكنها لم تجد..

اِستدارت ماضية في طريقها وقلبها يكاد أن يقفز من بين أضلعها، يستقر لديه، وفجأة ناداها قائلا:

- نقاء إن غلبك إحساسك عودي لا تتجاهليه!

ربما تحيي إنسان من العدم، ربما تجعليني أعدل عن فكرة الإنتحار تلك.

مضت نقاء في طريقها بخطى متعثرة، خطى لا تشبه أبدا تلك الخطى التي أتت بها.

دلفت إلى غرفتها التي طالما اِحتمت بها من برد الشتاء وقسوة الأيام، جدران لكنها تشعر بينها بالأمان و التونس.

وقفت خلف زجاج نافذتها، وكل ما بها شخص واحد فقط إسمه فارس!

ماذا فعل بها هذا الفارس!؟

كيف تغلغل داخلها بتلك السرعة وهذا اليسر؟!

هل يعقل أن يكون هذا حب؟

لكن قبل كل هذا، كيف تركت نفسها له هكذا وهي من تخاف الغرباء دائما.

همست بداخلها. يا الله ماذا أفعل؟

هل أعود أدراجي إليه؟ وإن عدت ماذا سيجدي؟

هل حقاً أحببته أم أن ما حدث كان مجرد أضغاث حُلم..

قربت كفها من فمها تستنشقه لتجد عطره عالق بين أصابعها، وكأنه تعمد أن يترك لها دليل يثبت لها أنه حقيقة وليس حلم، لم تجد أمامها سبيل إلا أن تستسلم للنوم

أغمضت عينيها على صورته التي ما تزال عالقة بأهداب عينيها، وراحت في سبات عميق لم تشعر به من قبل كمن غطاها شال أمها..

رأته فى منامها يضحك لها، يمسح فوق رأسها وقد ظل يروي لها قصة الأقزام السبع وبيضاء الثلج..

فتحت عينيها مع صوت زقزقة العصافير على شجرة التوت التي تقبع أمام نافذتها، وقد علت شفتيها اِبتسامة صافية، نهضت متكاسلة، فتحت زجاج نافذتها تاركة شعرها للهواء النقي يداعبه.. أخذت تنظر بعيد خلف الشجر وهي تتساءل:

- هل ما رأيته كان حلم!؟ هل هناك أحلام يقظة إلى هذا الحد؟

أم تراه جني قد اختطفني بعيدًا، وعشت معه تلك الليلة وردية الأحلام؟

قطع صوت حديثها مع نفسها، صوت طرقات على باب غرفتها، فعادت إلى واقعها مرة أخرى، ذهبت ناحية الباب تفتحه، لتجد جدتها أمامها، تستند إلى عصاها، وقد علت أنفها نظارتها الطبية السمكية التي لم تستطع أن تمنع طيبتها من الظهور، وبابتسامة

صافية قالت:

صباح الخير نقاء

وقبل أن تجيبها " نقاء" مدت يدها تمسك بكفها، الذي رسمت عليه تجاعيد الزمن لوحة فنية أدخلتها إلى غرفتها قائلة:

صباح الخير جدتي..

-كيف حالك بنيتي؟!

-بخير..

وعادت مرة أخرى لشرودها عبر النافذة، نظرت إليها جدتها من تحت نظارتها قائلة:

في أي شيء أنت شاردة هكذا؟!

-جدتي أخبريني ما هو الحب؟

ضحكت جدتها حتى سعلت بشدة من سؤالها، وقد نظرت إليها "نقاء" نظرة طفولية خجلة، فشعرت بها جدتها، لتفتح لها ذراعيها قائلة:

دعيني أضمك إلى صدري أولاً وبعدها أخبرك ما هو الحب.!

ألقت "نقاء" بنفسها وكل ما تحمله داخل حضن جدتها، وكأنها كانت بحاجة إلى من يضمها إليه، أخذت تمسح شعرها قائلة:

الحب صغيرتي هو أجمل وأطهر ما بهذا الكون، أنه إسم من أسماء الله..

فالله إسمه الودود، الحب رقة وإحتواء ودفء وتضحية، الحب أن تعطي وتعطي دون انتظار مقابل، الحب هو أن يربط بينك وبينه حبل سُرْى، إذا انقطع انقطعت الحياة، الحب أن ترينه في كل الوجوه وتشتمين ريحه فى ذرات الهواء، يصير اسمك ولقبك ووجهتك وكل أحبتك..

لكن أخبريني، واصدقيني القول هل أحبت طفلتي؟!

تنهدت بشدة قبل أن تجيبها قائلة:

لا أعرف حقا جدتي، لا أعرف حتى إن كان ما رأيته حقيقة أم خيال!؟

حلم أم واقع!؟ لا أعرف شيء

-إذاً أروي لي ما حدث، ظلت تروي نقاء ما رأته وما سمعته وما عاشته

ظلت تصعد وتهبط وتتسارع دقات قلبها، روت كل ما كان. لتظل جدتها صامتة، ثم نظرة إليها قائلة:

نقاء.. أنت لم تغادرين المنزل منذ أمس، ولم يكن هناك مطر، وقد جئت هنا في الليل أكثر من مرة كي أطمئن عليك، ووجدتك تغضين في نوم عميق.

وقفت نقاء وقد ظهر عليها الانفعال قائلة:

إذاً لقد جننت، إن كان ما تقولينه حقا يا جدتي، فقد جننت.

-إهدأي يا نقاء.. من المؤكد أنك كنت تحلمين.

-أحلم؟! كيف ورائحة العطر هذا من أين جاءت!

-لا أعرف حبيبتي، إهدأي فقط هيا انهضي كي تتناولين إفطارك، سأذهب كي أصنع لك، كعكة الفراولة التي تحبينها.

نهضت الجدة تاركة الغرفة وتاركة نقاء خلفها غارقة فى حيرتها، لتعاود الوقوف مرة أخرى فى نافذتها وبداخلها صوت يقول:

صدقي إحساسك، اِسمعي هذا الصوت الآتي من بين أضلعك، لقد قابلته بالأمس ولمسته يدك، فقط اترك كل شيء للوقت، وستعرفين إجابة كل شيء.

لم تجد "نقاء" أمامها شيء تفعله غير أن تستمع لهذا الصوت، أغلقت زجاج النافذة، وأغلقت على هذا الفارس المجهول قلبها.

ذهبت إلى خزانة ملابسها، سحبت إحدى فساتينها مرتدية إياه، ولملمت شعرها فى جديلة طويلة تاركة إياها على ظهرها ثم خرجت حيث جلست جدتها.

جلست بجوارها وهي تحاول أن تخفى ذلك الصراع الدائر داخلها، مدت يدها وأمسك بالكعكة التي صنعتها لها جدتها، أخذت تتناولها وعيونها شاردة فى شيء لا تعرفه حتى قطعت صمتها جدتها وهي تداعبها قائلة:

. أول شيء نطقته "نقاء" بعد كلمة أمي وأبي

هو كعكة الفراولة، منذ صغرك تعشقينها.

ابتسمت لها نقاء ابتسامة عرفان فأردفت جدتها قائلة:

أحسك تشبهين ثمرة الفراولة حلوة مثلها.

نهضت نقاء وذهبت حيث جلست جدتها تقبل رأسها، محتضناها بكلتا يديها كمن تريد أن تأخذ جزء منها وتبقيه معها قائلة:

كم أحبك جدتي.. سأغادر قليلاً ولن أتأخر.

- إلى أين حبيبتي!؟

- سأسير قليلاً على شاطئ البحر

- حسنا اذهبي واحترسي على نفسك.

ذهبت نقاء إلى شاطئ البحر، حيث طيور النورس والموج، وقفت قليلاً تراقب الأمواج وهي تتسارع فى الوصول للشاطئ تقبل رماله، رفعت فستانها عن ساقيها قليلاً كطفلة صغيرة قررت اللهو.

نزلت إلى البحر.. تركت قدميها للمياه تدغدغها، أخذت تضحك وتلهو حتى ابتلت ملابسها، وقعت عينيها على زجاجة قد أتي بها الموج، وقد استقرت قرب قدميها، مدت يديها تتناولها، لتجد بها رسالة مطوية، دفعها فضولها أن تعرف ماذا بها، أخذت الزجاجة وخرجت من البحر إلى الشاطئ، جلست تلتقط أنفاسها تحت نخلة كانت الطبيعة قد تركتها بهذا المكان وغفلت عنها، أخرجت الرسالة من الزجاجة بعد محاولات كثيرة وأخذت تقرأ سطورها التي تقول:

نقاء. صدقي احساسك، واجعليه يرشدك فما رأيته حقيقة وليس خيال، الأرواح لها القدرة على اختراق الزمن وتخطي الحدود والمسافات، أنت صادقة فقط صدقي قلبك..

وقفت نقاء مبهوتة مما قرأته، ظلت تبحث حولها تجري بكل اتجاه، تنادي بأعلى صوت قائلة:

فارس.. أين أنت؟ أعلم أنك حقيقة، أثق أنك واقع، لكن أين أنت!؟

شعرت فجأة بأنفاس دافئة، آتية من خلفها هامسة لها:

- أنا هنا نقاء..

التفتت خلفها بلهفة شديدة، لتتقابل أعينهما عن قرب، غرق كلاً منهم فى الآخر، ذابت الكلمات فوق شفتيها، أبت أن تترك حبالها الصوتية، كلما همت أن تنطق تصمت، نزلت دموعها لتنطق ما بداخلها، مد فارس أنامله يمسحها، ويمسح ملامحها برفق قائلا:

لا تقولي شيء، أعلم كل ما يتصارع بداخلك، أشعر بكِ لأنني أشعر بنفسي وما بداخلي هو ما بداخلك.

مدت نقاء يديها تتحسس وجهه ومن بين دموعها قالت:

- أنت هنا، نعم أنت معي، أنت حقيقة أمسك بها.

ضمها إليه بشدة، حتى هدأت قائلاً:

لقد كانت روحي تائهة ضائعة، قررت الإنتحار، جئت هنا ذات صباح، رأيتك من بعيد، لا أعرف لما أحببتك، فقررت أن أرسل إليك روحي، وراهنت إن كانت صادقة حقاً وأحبتك، ستذهب إليكِ فى منامك، تخبرك عني، وستأتين تبحثين هنا عن فارسك..

همت أن تتحدث نقاء لكن المطر كان أسرع منها، هطل بشدة ليضحك فارس قائلاً:

- حتى الأمطار حبيبتي تصدق العاشقين

تمت

(يوناس)

جلست أتطلع إليه وعلى شفتي اِبتسامة بينما يحكي لي بإستفاضة كيف أستطيع التخلص من الفأر العالق بالمصيدة بأسفل البدروم.

هذا هو صديقي منذ انتقلنا إلى هذا المنزل في الصيف الماضي، كان المنزل قديمًا منذ زمن بعيد، إنتقل إليه والداي بسبب ضعف حالة والدي المادية بعد أن تم تخفيض مرتبه بالشركة التي يعمل بها مع الأزمة الإقتصادية.

حين رأيته أول مرة كنت ألهو وحدي أسفل السلم حيث تضع والدتي دراجتي الصغيرة، وجدت عينان غريبتان تحدقان بي، لم أرتعب، سألته ببراءة إن كان يريد اللعب معي فأومأ برأسه دون أن ينطق، هبطت من على دراجتي وأعطيتها له، ظهر الفرح جليًا على وجهه ثم تقدم نحوي بخجل، ركب الدراجة فساعدته على السير بها بينما أمسكها له، لم ينتابني الخوف من شكله الغريب عن هيئتنا، ظللت أمرح معه وتتعالى ضحكاتي، وبين الحين والآخر تطل علي والدتي تسألني بحيرة عن سبب دفعي للدراجة دون أن أركبها ثم تختفي بداخل الشقة مرة أخرى.

وهكذا توطدت علاقتنا، كنت ألعب معه، ثم بدأ يتحدث معي، صوته ينساب داخل عقلي وكأنه يتحدث في مكبرات صوت مخفية داخل تلافيف مخي، اسمه كان يوناس، الإسم كان جديدًا لكنه أعجبني.

حكيت مع أمي عن صديقي لكنها لم تكن تراه، كانت تستمع لي وعلى وجهها ابتسامة خفيفة كأنها تجاريني في حكاوي.

نزلت البدروم أحمل علبة الكبريت خلسة، توجهت نحو الفأر العالق بالمصيدة تطلعت إليه بجذل، همست ليوناس بفرحة:

هل تعتقد إن فعلت ما حكيته لي سأصبح قويًا؟

هز رأسه بسرعة بينما تتسع عيناه الغريبة لتصبح أغرب، قال لي بصوته الأملس:

نعم إن نفذت ما قلته لك فسأصطحبك لتقابل أصدقائي وتلعب معنا.

ضحكت بجذل، اِقتربت من الفأر المحبوس الذي يتطلع نحوي بذعر متجلي على وجهه الصغير، همست له بصوتي الصغير:

هل سمعت يا صديق؟ سيصبح لي أصدقاء آخرون غير يوناس.

أخذ الفأر يتخبط بذعر وكأنه يحاول الخروج من المصيدة، سكبت بعض الجازولين عليه ثم حككت عود الثقاب بالعلبة لتتوهج رأسه بلون برتقالي محبب، اِقتربت ببطء من المصيدة ثم ألقيت العود عليها لأبتعد أراقب تخبطات الفأر العشوائية بجنون، ضحكات صاخبة ارتفعت من فمي وأنا أراقبه بصمت بينما يصفق يوناس بجذل.

كانت تلك البداية، صارت لعبتنا هي اصطياد الحيوانات الصغيرة ثم ممارسة الحرق بالنيران لها طقوسنا المفضلة التي نمارسها بشكل دوري.

كان لي الآن عدة أصدقاء ألهو معهم، لم أكن أحب الاختلاط بأسرتي، كنت أتجنب اللعب مع أختي فهي غبية لا يشغل بالها سوى اللعب بعرائسها ومشاهدة التلفاز، أما أنا فقد كنت أحب اللهو خارج المنزل بداخل الأسوار مع رفقائي، كانت أمي تراقبني من بعيد وكأنها تتعجب عزلتي عنهم، لكنها بنفس الوقت تراني سعيدًا ألهو بالكرة أو أضحك بصوت مرتفع وأنا أشاهد أفلام الكارتون مع أصدقائي، سألتهم لماذا أراهم وحدي والآخرون لا يرونهم فلم يعطوني سببًا؟! لكني لا أهتم.

كَبِرْتُ وكَبُرَتْ صداقتي مع يوناس، صار فارع الطول مثلي، أصبحت أعرف عن عالمه الكثير، كنت أتحدث معه بصوت خافت، فأسرتي لا تعلم شيئًا عن صداقتنا منذ أن نهرتني والدتي وطلبت مني أن أكف عن التحدث عنه حتى لا أتهم بالجنون، لكن ميولي

لتعذيب الحيوانات كبرت، كنت أتلذذ باصطياد الكلاب الضالة وإحراقها في مقلب القمامة القديم، لم تقصيني نظرات الاِستجداء في أعين تلك الحيوانات المتخلفة عن إضرام النار بجسدها ومشاهدتها بتلذذ بينما تتقلب على الأرض تحاول إطفاء نفسها، كانت تلك متعتي الليلية مع يوناس.

حتى أتي ذلك الغريب، شخص ذو أسمال بالية، اِقترب من مقلب القمامة حين سمع أنين الكلب الذي أضرمت النار بجسده منذ قليل، أشارلي يوناس بالاختفاء، فهربت خلف إحدى الحاويات الكبيرة لأراقب الرجل خِلسة، تقدم الرجل بسرعة، قال بصوت ينبض بالغضب:

يا إلهي.. من فعل هذا؟

ثم وبكل سرعة خلع السترة البالية التي يلبسها فرماها على الكلب يطفئ النيران المشتعلة بجسده، كان يقول بغضب ناري:

ويلٌ للظالمين.. لا يُعذب بالنار إلا رب النار، ويلٌ للظالمين.

هدأ الكلب لكن الشحاذ ظل جواره وهو يقول كأنه ينعي نفسه لا الكلب الميت:

هذه دنيا سيئة، لا رحمة بها للإنسان فكيف ترحم حيواناتها؟

ظللت أراقبه بينما ينتابني غضب، كان يوناس جواري، ثم ظهر صديقي الآخر آبا، همس لي في أذني أن أُصمت ذلك الرجل، فكلامه جارح ومؤذي، كنت أوافقه الرأي، فقد أصابني بالغضب جديًا.

وقبل أن اخرج من مخبأي أحمل تلك العصا الغليظة نهض الرجل وغادر مجلسه، عدت للمنزل ينتابني حنق عنيف، حين سألتني والدتي عن سر غيابي لم أهتم بالرد عليها، دخلت غرفتي فأستلقيت على الفراش وذهبت بنوم عميق.

❋ ❋ ❋

طفلي آسر غير الأطفال الآخرين، حركي، ذكي، ذو خيال جامح، لكنه يتصف ببعض سمات العنف.

كان عنفه يظهر حين يتشاجر مع أخته الأكبر منه فيضربها بعنف يؤلمها، وكنت أتدخل بطبيعة الحال لأفض بينهما وأظل أعنفه على قسوته تلك.

ثم تغير كل شيء حين انتقلنا لذلك البيت القديم ذو الإيجار المتواضع، صار آسر يحب اللعب وحده، يستمتع بالحكايا عن صديقه الجديد يوناس، لم أهتم كثيرًا بصديقه ذلك، فقد كنت أعرف أن هذا طبيعي مع الأطفال بسن ابني، أن يتخذ صديق وهمي هو إحدى سمات ذكائه.

لكن مع الوقت صار هذا يضايقني، فآسر أصبح الأن في العاشرة من عمره، لم أعد أستسيغ تحدثه عن صديق وهمي، أخبرته أن يكف عن اختلاق تلك الحكايا لأنه أصبح كبيرًا ولن يتقبل الناس منه ذلك بعد الآن، بالأول صار يجادلني بأن يوناس ليس صديقًا خياليًا بل هو حقيقي ومن عالم غير عالمنا، لكن حين رأني جادة في تحذيره التزم الصمت ولم يعد يتحدث عنه مرة أخرى، سلوكياته أصبحت غريبة، صامت مُنزوي بعيد عنا، مستواه الدراسي سيء، وشكوى المدرسين منه متكررة، عنيف مع زملاء دراسته حتى إن والده أتته عدة مرات استدعاءات للمدرسة بسبب مشاكل مع الزملاء تصل حد الإصابة.

حاولنا معه بعدة طرق، التعنيف، التوجيه، الترهيب، الإحتواء لكن لا نتيجة، كان يرفض مجرد الإستماع، اضطر والده أن يُعاقبه بالحبس في غرفته عدة مرات لكنني كنت أسمعه يتحدث داخل غرفته، حين أفتح الباب يصمت، حين أسأله مع من يتحدث يخبرني بلا شيء، فقط يراجع حوارًا يحفظه مع نفسه، وهكذا ظللنا عدة سنوات على تلك الحالة السيئة والتي كانت تسوء بكثير بعض الأحيان.

حين أتاني تلك الليلة ببضع قطرات دماء على ملابسه صُدمت، سألته مرات عديدة عن سببها فلم أجد إجابة مُقنعة، تارة يُخبرني بأنه جُرِح، وحين أجبرته أن يريني مكان الجرح أخبرني بأن صديقه جرح والدماء تناثرت على ملابسه، كلامه غير منطقي، أغضبني فعاقبته لكذبه بالحبس في غرفته طوال اليوم.

استشرت صديقة لي فإقترحت أن أذهب به لأخصائي تعديل سلوكيات، وقد كان.

حين ذهبت للأخصائي النفسي أشعرني أني أم عديمة الأمومة، عنفني أني لم أهتم بطفلي بالرغم من بوادر العنف التي أظهرها منذ صغره، أخبرني بأنني يجب أن أتابع معه عدة جلسات كي يستطيع تقييم حالة ابني بدقة.

اِنتظمت معه بجلسات المتابعة، كان يؤرقني تتابع حالة آسر، كان وكأنه يسخر مني ومن المعالج النفسي، يتعمد استفزازي وإظهار لامبالاته ورفضه للمتابعة، كان يصر بأنه لا يحتاج الذهاب لطبيب نفسي فهو بخير، كنت أقنعه أنني أصدق كونه بخير لكني أحب أن أطمئن أكثر فيكتفي بالاِبتسام ثم يدخل غرفته.

مضت عدة زيارات قبل أن يخبرني الطبيب أن ابني يرفض التعاون معه بشكل فج، أخبرني بأنه يعاني علة ما ربما تكون إنفصام بالشخصية لكنه يرفض الحوار ويرفض أن يتحدث، كانت الجلسة بينهما صامتة كالقبور تستفز الطبيب بينما ابني يرسم اللامبالاة على وجهه ويبتسم ابتسامة مخيفة ترعبه.

أصابني الذعر من كلام الطبيب، فأنا أم وقلبي يؤلمني على ابني، لكن الطبيب أشعرني بأن هناك مصيبة يخفيها آسر.

قررت عرضه على طبيب آخر لكن آسر أصابته نوبة غضب عنيفة وهو يخبرني بأنه لن يذهب لطبيب آخر، وإن أجبرته على الذهاب فسيترك المنزل ويرحل بلا رجعة.

رضخت تحت تهديده أن أصمت وأراقبه من بعيد، ظهر لي طبيعيًا بعض الشيء، فلم يعد يتأخر بالعودة إلى المنزل كما بالسابق، لكنه مازال يعتزلنا ويرفض الإندماج معنا، كان يرفض أن يحكي لي أى شيء، يرفض أن أدخل غرفته، أشعرني هذا بالقلق فتحينت الفرصة كي يخرج من البيت لأفتشها، لم أجد بالغرفة مايريب، أنهيت التفتيش وتأكدت بأنها على نفس حالها ثم خرجت، لكنه حين عودته أخبرني بغضب ألا أكرر فعلتي تلك، فهو يعلم مايدور خلف ظهره، سألته بقلق عن الكيفية فأكتفى بأن تركني ودخل غرفته.

مرت الأيام ثم تشاغلت مع بقية الأبناء وخاصة أني لم أعد أركز مع تصرفات آسر كما من قبل حتى كان ذلك اليوم المرعب بعد توقف زيارته للطبيب بعدة أشهر.

* * *

في مصحة نفسية على أطراف المدينة أسرع أحد الأطباء نحو الطبيب كبير السن والذي يبدو من هيئته أنه صاحب المكان أو المسئول عنه، قال بخوف:

دكتور فؤاد، المريض المصاب بإنفصام الشخصية!

سأله الطبيب بينما هو منشغل بمراجعة أحد الملفات بيده:

أيهم يا أحمد؟

قال الطبيب أحمد: ذلك القادم بعد تشخيصه بفصام شخصية من الدرجة الخطيرة، الذي قتل طبيبه النفسي الذي كان يعالجه.

رفع عينيه بإهتمام قائلًا:

تقصد آسر؟ مابه؟

قال الطبيب بحيرة:

إنتابته الهلاوس مرة أخرى، رغم خضوعه للعلاج المكثف لكنه كان يضحك منذ

قليل ويتحدث مع شخص خيالي، ثم أمسك ذراع الممرض بعنف ليكسره.

نهض الطبيب فؤاد قائلًا بقلق: ومالذي جعل الممرض يدخل غرفته؟

قال الطبيب بهمس خائف: لا نعرف، فالممرض نفسه لا يعرف كيفية دخوله الغرفة، كل مايتذكره أنه وجد نفسه داخل الغرفة يحمل محقن مهدئ بيده ويقف أمام المريض.

عقد الطبيب الكبير حاجبيه بغضب قائلاً:

ماهذا الهراء؟ لا أحب ترويج الإشاعات، سأذهب إلى غرفته، أخبر قوة الأمن أن تلحقني هناك.

سار بخطوات غاضبة تجاه غرفة آسر، فذلك المريض نزيل لديه منذ شهر، جرب معه كل العلاجات الممكنة إلا أن حالته لا تتحسن، كان يصر بأن لديه صديق يسمى يوناس هو من يطلب منه فعل تلك الأشياء المؤذية، تشخيصه كمريض بالشيزوفرينيا أو إنفصام الشخصية كان حتميًا بعد جلسات عديدة معه، الفتى كان يبدو متماسكًا وهو يحكي كيفية تعرفه بيوناس، مغامراتهما سويًا منذ الصغر، تكلم عن عالم آخر مفتوح له كي يطلع على ساكنيه، يتعامل معهم بأريحية، تكلم كم هو مميز لذا كان المختار، بل وإستفاض فأخذ يشرح عن يوناس وكيف أنه من قبيلة تسمى القرين، أخبر الطبيب أن العالم الآخر به قبائل وأفراد مثلنا لكنهم مخفيين، لا يراهم إلا من كان مميزًا مثله، كان يتحدث بثقة بينما يراقب الطبيب بعينيه وعلى وجهه ابتسامة غامضة خبيثة تخيف الطبيب قليلًا.

هز الطبيب رأسه بتأكيد مغمغمًا لنفسه" تشخيص نموذجي لمرضى الشيزوفرينيا، بالأخص تلك الحالات المشخصة بجنون العظمة أو البارانويا".

حين وصل غرفة آسر وجد هرجلة أمام الغرفة، إقترب بقلق متسائلًا:

ماذا يحدث هنا؟

تطوع أحد رجال الأمن قائلًا بخوف:

المريض الذي يشغل الغرفة إختفى.

فتح الطبيب عينيه بذعر متسائلًا:

كيف إختفى؟ هل هرب؟

لكن الجمع الصامت حوله هزوا رؤسهم بنفي بينما أعينهم تتطلع نحو الغرفة برعب، اِقترب الطبيب فؤاد يفتح الباب فوجده موصدًا بالمفتاح، حين فتح الباب من الخارج ودخل الجميع للغرفة تعالت الشهقات برعب: فالجدار الداخلي كان مغطى بدماء مكتوب بها: أخبرتكم فلم تصدقوني، حان وقت الإثبات يا ذوي العقول المحدودة.

تمّت

(العشق القاتل)

أه يا من تداعبينني سرًا.. لقد اِشتقت إليك

أنا ملقى علي فراشي وأشعر بك تتلمسين أطراف أناملي فيقشعر بدني هل حقًا رضيت عني هل ستتركينني أتحسس جسدك الأملس الذي طالما حلمت به وأنا أتلمسه أتذكر لقاءك الأول هناك في ذلك المتجر كنت تقفين هناك مثل الإله، تنظرين إلى القائمين من حولك نظرة العبيد الذين وُجدوا فقط لكي يصيروا خدما لك، لست كالنساء بل النساء يتمنوا أن يصيروا مثلك وهنا أسرتني بعينيك التي ثبتوا عليَّ أنا وحدي دون غيري من المتواجدين من حولي، و رأيت شبح اِبتسامتك التي حدثتني إنك تريدنني أنا، وأنا فقط حاولت أن أتقدم منك ولكن نظرات الغيرة والحسد أوقفتني فذهبت إلى البائع نقدته الثمن وغادرت.

يا إلهي.. هاهي تتحسس قدمي وتصعد إلى فخذي جلدها الناعم يقتلني شوقاً ويذيبني عشقا تقدمت لأعلى هاهي تضع رأسها علي صدري، وعينيها تتقابل مع عيني، الرؤية مشوشة قليلًا لعدم ارتدائي عويناتي الخاصة بالرؤية، ولكن لا أبالي فيكفيني ما أشعر به، أخشى أن أضمها بين ذراعي فتراوغني وتهرب كما سبق وفعلت، فتركتها إلى أن أتت إليّ بنفسها.

أسبوع قد مضي على لقاءنا في ذلك المتجر، وها هي في صالة داري أتطلع إليها بشوق وأنظر لها بهيام وعشق لا حدود له، فتطالعني هي بنظراتها التي تقتلني لا تعلم إن كان شوق أم دلال أم غنج، تقدمت منها ببطئ فلم تمانع حاولت التحدث معها ولكن الكلمات توقفت في حلقي، كأنما أرادت الكلمات ألا تفسد تلك اللحظة التي تكلمت بها العيون وما

أدراك بلغة العيون، حاولت أن أستميلها فأبت وتراجعت كأنما تريد أن تستمر اللحظة تلك إلى الأبد، تقدمت برعونتي إليها أحاول أن أتملكها بين ذراعي، ولكنها راوغتني وابتعدت، نظرات الغضب تملأ عينيها وذهبت تاركه اِياي منكبًا علي وجهي ونظرات الحسرة تملأها.. وغادرت

مر يومان.. ولا زلت أنتظر رؤياها مرة أخرى، يتملكني شعور قوي أنها معي تنظر إلى في تشفٍ لما تراني عليه من معاناة، أبحث عنها في كل زاوية، لقد صرت مجنون بحبها الذي تحول إلى عشق.

ها هي قد أتت من بعد اِشتياق، القبلة التي تمنيتها منذ وقعت عيني عليها، صحيح أنها قَبَّلَتْ صدري ولكنها البداية لشىء تمنيته منذ لقاءنا الأول، أسنانها تنغرس في لحمي معبرة عن اِشتياقها المجنون، ها هي تصعد لأعلى لتواجه وجهي تماما وتلثمني من شفتي في قبلة طويلة

يا لرعونتي.. لم أتعلم الدرس بعد، حاولت أن أضمها بين ذراعي مرة أخرى فهربت من بين يدي كما فعلت سابقًا، ولكن تلك المرة لم تذهب بعيدًا، بل وقفت هناك بجوار النافذة وأنوار السماء تأتي وتذهب ويتبعها أنين الرعد كأنه ينهرني عن رعونتي السابقة، تضئ الغرفة من ضربة برق أخرى ولكنها بجوار النافذه مستترة بالظلام واقفة في شموخ وتعال، يتموج جسدها في حنكة بالغة، وكأنها تتراقص على أنغام الرعد لا أستطيع النهوض فنصف جسدي الأيمن فيه خدر عجيب، أراها بعيني اليسرى لأن هناك سحابة داكنه أغمت عيني اليمنى تقترب بمودة من مزلاج النافذة، وأخذت تعالجه كى ينفتح، لم أعلم بأن الآلهة تعرف كيف تعالج المزلاج! ضربة برق أخرى تنير سماء الغرفة، هاهي برأسها المفلطح ولسانها المشقوق وذيلها الطويل الذي يلتف حول المزلاج لكي ينفتح بالفعل ليلفح الهواء البارد جسدي لأرتعش من البرودة المفاجأة، ثم تلتفت إلي بموده وتنظر إلى

عيني ثم تنسل خارجًا ولم ألمح سوى زيلها وهو يختفي من أمام عيني، الأن تذكرت كلمات البائع:

يجب أن تنزع أنيابها كل عشرة أيام وإلا نبتت وصارت خطرا على حياتك، فأجبته وأنا عيني تنظر إليها في عشق واضح:

_إنها لن توذيني أبدا فكيف يؤذي المحبوب حبيبه؟!

كنت أتطلع إليها وهي داخل قفصها الزجاجي تنظر إلي وكأنها تناديني ويتطلع الجميع إليها بخوف وحملتها بين ذراعي وهي داخل سجنها الزجاجي وقبل أغادر اِستوقفني البائع وقال:

_ يبدو أنك تعشق ذلك النوع من أفاعي الكوبرا، فتلك التي بين يديك لايوجد منها سوي اثنتين وها قد ملكت واحدة منهم، فأجبته:

_ وكيف لا أعشقها وهي إله عبدوها قديما وتزينت بها الملكات وإلى الأن تحاول النساء أن تتعلم منها، بل وأن تشبهها فقال البائع:

-وماذا ستطلق عليها. أجبته بفخر:

-سأطلق عليها إسمها الأصلي، "أورايس" معبودة المصريين. ثم خرجت

تذكرت الأن لماذا اِختفت أسبوعين، حتى تكتمل أنيابها ويسري السم بهم.. حقا إنك قاتلة أيتها الإله القديم، ها هي نبضات قلبي تخفت ولم تعد عيني تري أي شيء من حولي، ولكنني أشعر بها تعود من جديد لم تقوي علي فراقي، يا إلهي لكم أعشقك، تقترب مني تقبلني من رقبتي، إنها تعشقني هي أيضًا، فلم تتركني لمعاناتي، فعادت حتى تنهي ما بدأته.. فوداعًا أورايس.

_ آسر آسر هل انت بخير الأن

تنامت تلك الكلمات إلى مسامعي بصوت بدا مألوف لدى

_كيف حاله الأن يا دكتور

_إنه بخير.. لاتنسى أنه تعرض لكمية من السم تكفى لقتل فيل ضخم ولكنك أنقذته فى الوقت المناسب وخاصة أنك حددت نوع السم الذى تعرض له، مما جعلنا نأتى بالمصل الصحيح سريعا وإلا كانت العاقبة وخيمة ولم نكن نستطيع إِنقاذه فى الوقت المناسب.

_يا إلهى لقد عرفت صاحب الصوت، إنه صديقى ياسر، ذلك الذى يقطن فوقي تماما، ونحن أصدقاء منذ الطفولة.

فتحت عينى، وكأنما أرفع ثقل يتعدى وزني، حلقى جاف كأنه بئر وقد جف منذ مئات السنين

_أين أنا ياسر؟ أهذا أنت؟

_لقد أفاق الحمد لله

كان ذلك صوت ياسر الذى يثنى بالحمد، شعاع من الضوء يخترق حدقتا عيني ويد غليظة تُفتح عينى غصبًا وبالقوة، ثم فرقعة أصابع بجوار أذنى كأنها طلقة مدفع من الحرب العالمية الثانية تنفجر بجوار أذنى.

_ آسر آسر هل تسمعنى؟

_أجل أجل أسمعك من أنت؟ وماذا أفعل هنا؟

_أنا دكتور محمد سيد وأنت هنا بمعهد السموم وقد عدت من الموت بأعجوبة حمدا لله على سلامتك.

تحرك الطبيب بردائه الأبيض ليلقى ببعض التعليمات لمرضة تقف بعيدًا ليطالعني، وجة ياسر أمامي مباشرةً، عيونه غليظة، ذات لون قانٍ من آثر بكاء طويل مقترن بعدم نوم، هادئ، نظرت له وابتسمت رغمًا عني فكان موقفه كموقف أم تحنوا

على صغيرها الذى يعانى من خطر داهم.

_ ماذا حدث؟ وماذا تفعل هنا؟ وماذا افعل أنا هنا؟

_ حمدا لله أنك بخير لقد أرتعبت عندما رأيت تلك الحية تسعى خلف زجاج نافذتى، وكان قد أصابنى الأرق من هزيم الرعد، فنهضت لأدخن لفافة تبغ عندما باغتتنى من خلف الزجاج تنظر إليَّ فى تحدٍ، ثم تتبع سبيلها ذاهبة إلى أعلى، تذكرت كلمات طفلي الصغير عندما ذكر أنك عدت يوما محملا بقفص زجاجى به أفعى مخيفة المنظر، ولكننى لم أصدقه فى بداية الأمر ولكن عندما وجدتها تسعى أمامى خشيت عليك، فالطالما هى حرة فأنت لست بخير، وبالفعل هرولت إلى أسفل أدق بابك، ولكن ما من مجيب وأضررت إلى كسر الباب لأجدك نائما وبينك وبين الموت أمتار قليلة، فحملتك وأتيت بك إلى هنا وأخبرتهم عن شكل تلك الحية، ولحسن حظك فكان مضاد السم متواجد، وبهذا عدت إلينا من عالم الأموات بعدما كنت فى عدادهم.

غريب ذلك الأمر لقد تذكرت الأن ما حل بى تلك اليلة ولكن لم يفهم ذلك المعتوه أن أورايوس ما كانت لتؤذينى، وأن فعلت فهذا شأنها فالألهة تفعل ما تشاء بعبيدها نظرت إليه ولم أجب، بل أعطيته ظهرى ورحت فى ثبات عميق.

ثلاثة أيام مضت.. وقد حان وقت خروجي من المشفى، ولم يفت ياسر أن يكون حاضرًا بالطبع، فهو لم يتوقف يومًا عن زيارتى وكأنه والدتى متمثلة فى هيئة ذكوريه، أنا لا أريد أم ولا أريد أن يهتم بى أحد فيكفينى أنه جعل حبيبتى تهرب، فلهذا صرت أمقته، تركني عند باب دارى وصعد هو لأعلى، مما جعلنى أدلف إلى شقتى لأتطلع إليها أبحث عنها بعينى يمينًا ويسارًا لعلها عادت بعدما اِطمئنت إلى خلو المكان من المتطفلين، ولكن قبل أن أخطو بضع خطوات سمعته يدفع الباب الذى كان قد حطمه من قبل ليدخل محملًا بشتى أنواع الطعام الجاهز.

_ لقد أعدت زوجتي لك هذا الطعام اِحتفاء بعودتك، فطعام المشفى لا يثنى ولا يغنى من جوع.

كان يتحدث وابتسامته تملأ قسمات وجهه، مما جعلنى أبتعد ليضع الطعام إلى الطاولة، ثم يجلس ليتناول لقيمات بنهم، ويشيرلى قائلا:

هيا مد يدك، إن الطعام لذيذ جدًا.

_ لست جائع.

_ هيا لا تخجل مني.

جذبنى من يدي عنوة، حتى كدت أن أسقط من أثر جذبته العنيفة، جلست أمامه أتناول الطعام بغير شهية أنظر إليه كأنما أنظر إلى عدو لي، لقد اِستباح خصوصيتي ويتعامل كأنه صاحب الدار، صحيح أننا كنا أصدقاء، ولكن هذا لا يعطيه الحق ليقتحم حياتي هكذا، أنهى طعامه ثم نهض ليحمل ما تبقى منه ويضعه فى مبرد منزلي واتجه للخارج وهو يقول:

_ لعلك تريد الطعام فيما بعد، أتركك الأن لتستريح ولسوف أعود فى المساء.

لم أجيبه.. تركته يذهب مثلما أتى فلقد صار المنزل منزله رغمًا عني، جلست على تلك الأريكه ناظرًا إلى ذلك القفص الزجاجى الفارغ فهناك كانت ترقد حبيبتي نهمة لأنواع الحمام التى كنت أتيها به كل يوم، حتى أنني وضعت غية فى شرفتى مليئة بها حتى لا أضطر للنزول كل يوم، أتراها قد تعود؟ أتراها اِشتاقت إليَّ مثلما أشتاق إليها؟

صوت حفيف يجوب بلا رجاء، لابد أننى أهذى من كثرة تفكيري بها، صرت أسمع حفيفها ولكن الصوت يعلو رويدًا رويدًا، وهناك أسفل باب غرفة نومي كانت تقف تتطلع إليَّ، لم أعلم من نظرتها أذلك شوق أم هى حب المفترس لفريسته؟ تقدمت نحوها أتطلع إلى عينيها بثبات، ثم قلت:

_ أعدت من أجلى

_ ....

_ أتريدين حياتي

_ ....

_ هل أنت جائعة؟

حركة غريبة بعد الثبات، هل حقًا تفهم كلماتى؟ إذا فلسوف أقوم بتجربة، ذهبت إلى الشرفة، ذلك القفص الخشبى يحتوى عدد من أزواج الحمام، مددت يدي وقبضت على أحداها ثم عُدت، رقصة منها توحى بالفرح كأنما أتيت لها بعقد من الألماس، قذفت إليها بذلك الطائر لم تمهله لحظة سقوط إلى الأرض، بل ألتقطته فى الهواء لتنشب به أنيابها وتلتف حوله وما هى إلا دقيقة وكان الطائر يستقر بداخلها وهى ملتفة حول نفسها بسكينة وهدوء، جلست على أريكتي أتطلع إليها، مرت ساعات وأنا على تلك الوضعية، لم أسقط نظري عنها ولو للحظة واحدة حتى تمددت وأخذت تفتح فمها كأنها تتثائب بعد نوم عميق وتحركت قادمة نحوي، اِقتربت و لامست قدمي، تسلقتنى حتى وصلت بجوار أذني، توقعت الألم، أغمضت عيني و لسانها المشقوق يدنوا من وجهى

_ أنتظرتك طويلا

يا ألهى هل هذا صوتها هل تحدثنى حقا أم تراني جننت؟

_ أنت لم تجن بل أحدثك لقد رأيت العشق بعينيك فأردت أن أمنحك الأمن من ناحيتي، ولهذا أطلقت لسمى داخلك العنان ثم عدت لكى أزيده لكى يصنع جسدك مضادًا طبيعيًا له، وعندما وجدتك لا تستجيب ذهبت إلى أعلى لأطلب النجدة من جارك، ولقد أدى دوره على أكمل وجه لقد اِشتقت إليك يا حبيبى.

لقد جننت بالكامل ولكننى تسائلت:

_ هل أستطيع أن أفهمك أم أصبحتى تتحدثي بلغة البشر؟

إبتسامة عل فمها وصوت ضحكات أسمع بأذني

_ بل أنت الذى صرت تفهم لغتنا ألم تحب ذلك؟ ألم تتمناه؟ ألم تطلبه مني لكى أمنحك إياه ها قد أعطيتك جزء مني لكى تفهمني

أه ياحبيبتى.

إحتضنتها بين ذراعي ولم تفلت منى تلك المرة وضعت شفاهي على شفاهها وغبت فى قبلة طويلة كأننى عاشق وجد ضالته أخيرًا

_ ماهذا

كانت تلك أخر كلمة ينطقها ياسر، لأنه ببساطة تركت يدى وكانت تلتصق به من رقبته، هنالك فرق بين قبلة الحياة وقبلة الموت فقبلتها منذ قليل أعطت لي الحياة، أما ياسر فإنه يتلقى القبلة الأقوى قبلة الموت، ثوان ثم تركته عائدة إليَّ تتمدد بجواري على الأريكة واضعة رأسها فوق قدمى

_ اِتركه حتى يذهب، فلن يستغرق كثيرًا ثم انقله الى ذلك المشفى بعدما يكون فارق الحياة فلن يستطيع أحد أن يفرقنا ثانية أبدا

نظرت إلى ياسر الذى يتشنج وتخرج من فمه رغاو ذات لون أبيض، راقبته حتى هدأت حركته تماما وأنا أمسح بيدى على رأسها وأهمس لها

_ لقد عدت من أجلي، رجاء لاتتركينى

تمت

(آل البيت)

لا توجد ديوك في الصحراء... هذه حقيقة مهمة يجب أن نتفق عليها في البداية.. أنا اعتدت الإستيقاظ على صوت أحجار الرحى التي تديرها كفّي أمي كل صباح، ليس كل صباح، بل مع أخر خيط أسود من الليل اِعتدت أن أستيقظ في فراشي الأرضي داخل خيمتنا، أجساد إخوتي المتراصة النائمة بجواري ونجمة تلمع في صفحة سماء الليل الذي لم يعد ليلًا... ومن خارج الخيمة يأتي صوت أحجار الرحي تحتك في رتابة...

في أول الأمر كنت ألمح مكان أمي الخالي في الظلام وأخشي الخروج لاِستطلاع الأمر، حتي تجرأت ذات مرة وخرجت.. هاهو البئر الصغير ومربط الماشية القليلة التي نملكها.. هاهي أمي تفترش الأرض منحنية علي الرحى بكلتا كفيها، تدور بها في تصميم ورتابة وصمت.

-"أماه... أنتِ تطحنين الهواء.. لا شيء هنالك بين الأحجار!! "

أطلقت السؤال أول مرة طفلًا حائرًا يقف بقدمين حافيتين على الرمال المبللة بندي الفجر.. في تلك المرة رفعت عيناها إلى عيناي الحائرتين، لم تكن عيناها صامتتان، كانتا ميتتان.. كانت عيناها مقبرتين لسرّ أحالها من أجمل نساء عشيرتها وأطلقهن لسانًا إلى امرأة تعيش مع أطفالها في مرابض بعيدة على أطراف البادية، قريبًا من مسالك سفر القوافل في صحراء كابية قاسية، لا زوج لها ولا أهل بعد أن هجرها زوجها الأعمى حين اِرتد إليه بصره!.. كنت أسمع تلك الحكايا طفلًا ولا أفهمها، كان يرددها التجار والظاعنون الذين يقصدون الراحة في مرابضنا حين يمروا علينا، هم لا يجدوا عندنا ما نضيفهم به، ولكنهم أطلقوا علينا آل البيت و اِعتادوا أن يتركوا لنا نصيبًا مما يحملوا من زاد نظير الراحة في خيمة ضيوف كبيرة نصبها لنا الغريب ضمن ما طالت يداه جوانب مرابضنا

بالرعاية والتجديد.. ماذا؟ ألم أحك لكم عن الغريب؟ سأحدثكم عنه بعد قليل فهو نافخ الروح في حياتنا الجرداء.

كان التجار حين ينزلوا علينا يمنحونني فوق الأطعمة الغريبة من البلاد البعيدة أيامًا من الخيال الممتع، أسعد لحظات يومي حين كنت أهجع إلى مرقدي فأستعيد حكايا التجار عن البلاد التي يقصدونها ويحملني الخيال إلى تلك البلاد البعيدة فأرتادها وأعاين أعاجيبها..

صارت عادة لدي التجار والمسافرين أن يحلوا علينا ضيوفًا حين يرحلوا وحين يقفلوا عائدين وصرنا محط اِلتماسهم للبركة والأمل في الربح فاِعتدلت معيشتنا، وأحيانًا كان المسافرون المتحلقون حول النار ليلًا يتناسون وجودي وسطهم أو يعتبرون أنني لن أفهم حديثهم لحداثة سني.

حين كانوا يختارون حديثهم لتمضية ساعات الليل حول أمي، كنت أشعر أنهم يتكلمون عن امرأة أخرى غير تلك التي أتوسد ذراعها مساءًا، يتحدثون عن امرأة جميلة وقعت في عشق شاب أعمى شديد الوسامة من عشيرتها، وحين وقعت الخلافات بين الأهل فر بها إلي ذلك المكان النائي وعاشا سويًا وأنجبت له الولد، قبل أن تستيقظ يومًا ما لتجده يجلس في الفراش بجوارها يحدق فيها وقد اِرتد اليه بصره، أطال النظر إليها وهي صامتة كأنها تحلم، قام إلى صحفة معدنية لامعة فرفعها أمام وجهه، وراعه ذلك الوجه المليح الذي طالعه، وضع المرآة جانبًا ونظر إليها نظرة أخيرة، قبل أن ينسل خارجًا من الخيمة دون أن يعود.

منذ ذلك الحين وهي صامتة خالية من الحياة تصحو قبيل الفجر لتطحن الهواء وتبكي قبل أن نصحو وتحل علينا القوافل.

أما الغريب فهو ذلك الظاعن الذي نزل علينا مسافرًا وحيدًا بلا قافلة، فوق ناقة

أنهكها السفر أقبل، الأبيض لباسه والبشاشة عنوان روحه وملامحه ظلت ظاهرة رغم الإنهاك، حل علينا وحيدًا ولم يرحل بعدها قط، لشد ما خشيته في البداية وصرت أخشى العراك المتجدد بينه وبين أمي حتى يرحل فيرفض في أدب وإصرار، محاولًا أن يشرح في صبر أنه نزل علينا مأمورًا ممن لا يستطيع لأمرهم ردا...

مسافرٌ أندلسيّ هو.. اِشتاق لمكة ولمراقد آل البيت وملك عليه هذا المبتغى أمره، وحين رتب أموره وشد الرحال إليهم أخذ يأتيه في المنام آت يردد :

" آل البيت غرباء البيد، من أتاهم فقد أتانا، ومن قام على أمرهم جُمِعنا به في عدن"، صار يبحث عنا حتى أتي ديارنا فنزل علينا في خيمة الضيوف غير بعيد، أخذ يحرث الأرض حول البئر فظهر اللون الأخضر على اِستحياء وسط صفحة كبيرة من الأصفر المحيط بالأبصار وصار لدى غنماتنا ما ترعى فيه، أصلح خيامنا ومراقدنا وعرفنا لأول مرة أمان وجود الرجل حين كان يقوم بنفسه علي خدمة المسافرين بدلًا من أمي.. بعد حين اِعتدت أن أرنو إليه فوق تلك التلة البعيدة، التي صارت مجلسه المفضل في وقت الأصيل كل يوم، يشرف علينا وعلي الأغنام التي ترعى حولنا ويتطلع إلي مسارب المسافرين علّ قافلة قاصدة إلينا، فيستعد لاِستقبالها، وأحول نظري إلى أمي فأجد النضارة قد بدأت تغزو وجهها والراحة قد بدأت تسكن عينيها ..

ولكنها رغم ذلك مازالت تحبس عنا صوتها ومازالت تسكن في عالمها البعيد، مازالت أمي تصحو في نفس الوقت الذي هجرها فيه حبيبها تبكي، تطحن الهواء في الرحى، ومازلت لا أعلم لي أبًا غير الغريب.. ويتساءل قلبي الصغير:

لماذا لم أولد في تلك البلاد البعيدة التي يقصدها التجار؟ ومتى أسمع ضحكة أمي حتى يخضوضر كل ذلك الأصفر المحيط؟!!!

نجاة جثة

جلس وحيداً في أحد زوايا المركب تتقاذفه ذكرياته وأحلامه، واحدة تلقى به في غيابات ماضي سحيق، والأخرى تتلقفه بيد حنونة، وتعبر به نحو مستقبل يتحين تحقيقه ما أن يعبر إلى الشاطئ الآخر من المتوسط.

جلس غير عابئ ببرودة الجو الآخذة في الاِزدياد، وإن كان ذلك التلاحم الجسدي بين ركاب المركب قد خفف من وطأته. حاول أن يحصيهم بعينيه أكثر من مرة لكنه عجز، وإن قدر أنهم لا يقلون - بأي حال من الأحوال - عن الخمسين راكب، تباينت أعمارهم وتنوعت جنسياتهم، بخلاف طاقم البحارة، المكون من ثلاثة أفراد.

كان غارق بين دفتي ذكرياته وأحلامه، لم ينتشله منهما سوى صدى صراخات قوية، راحت تنطلق من هنا وهناك، كان الموج قد اِرتفع كثيرًا ، وراح يتقافز المركب في كل الاِتجاهات .

هاج البحر فجأة وكأنه يرفض وجودهم ويلفظهم - كما سبق ولفظتهم اليابسة - وكأنه يخاطبهم، "من أنتم؟! من سمح لكم بإعتلاء صفحة مائي؟! تجرأتم على ودخلتم مملكتي دون سابق إذن، غير عابئين بقوتي وجبروتي؟! نهايتكم ستكون هنا ، سأطعمكم أسماكي، وأسكنكم أحشائي ".

صرخ أحدهم وكأنه يسترحمه : "الله يلعن الحرب وسنينها".

في حين قال آخر : "والله لولا الظروف الصعبة ما قررت ترك زوجتي وأبنائي الصغار، أنا لا أطلب سوى الحياة الكريمة ".

"يارب سلم؛ من لأبي من بعدي؟! وكيف يمكنه سداد تلك الآلاف التي اِقترضها، لإتمام مغامرتي تلك نحو المجهول ".

قالها ثالث، ورابع وخامس وسادس......... .

لكن أي من تلك الشفاعات لم تجد لها صدى لدي البحر الغاضب، وفشلت في إثنائه عن قراره، أرسل عليهم موجة عاتية قلبت المركب المتهالك رأسًا على عقب، سمعوا معها أزيز تحطم أخشابه ليتفرقوا وينتشروا على وجه الماء، وسط الصراخ والعويل.

حاولوا السباحة، مستعينين بسترات نجاتهم، لكنها بدلاً من أن تطفو على الماء تشبعت به، وأصبحت عبء على مرتديها، من لا يستطيع اِنتزاعها تسحبه نحو القاع .

أحدهم يمسك طفلته الصغيرة، في حين يمسح محيطه بعينه بحثاً عن زوجته، دون أن يدري أنها راحت تشق طريقها نحو القاع.

صرخ أحدهم: "قرش ... قرش "؛ فتعالي الصراخ والعويل أكثر.

صرخ آخر بأعلى صوته محاولا تهدأتهم : "لا تقلقوا.. لا تقلقوا أسماك القرش لا تستوطن البحر المتوسط "،

لكن الأول أجابه :"أنا متأكد أنني رأيته، لابد وأنه ضل طريقه من أحد المنافذ البحرية ".

وفجأة ظهرت بقعة حمراء وسط المياه ، أخذت في الاِزدياد، مع ظهور المزيد من الأفواه الجائعة التي وجدت فيهم وجبة مستساغة.

وبعد ثلاثة أسابيع نشرت إحدى الصحف المحلية المغمورة، خبر العثور على جثة ضلت طريقها نحو الشاطئ، وسط تغير كامل في ملامحها بفعل البقاء في مياه البحر مدة طويلة، ينقصها قدم وزراع، ويرجح تعرضها لهجوم من أحد المفترسات البحرية .

تمت

(هلاوس)

دعني أخبرك سرا صغيراَ يا صديقي: أنا أكره التفاح أكثر من كرهك للسبانخ: فعلي الرغم من ألوانه الزاهية ومذاقه اللذيذ والصوت الرائع الذي يصدر عندما تتناول أول قطمه لك .. نعم

هو هذا الصوت الذي يجول بخاطرك الآن، إلا أنني توقفت عن تناوله في سن السابعة عشر .. سأحكى لك ما حدث فقط أعرني انتباهك، ولكن قبل ذلك سأخبرك بإسمي أولًا، إعلم أنك فضولي لذا سأخبرك به، سميت على إسم جدي يونس.

بدأ كل شيء بعد الإنتهاء من حصة المراجعة النهائية مع سلطان التاريخ أستاذ "عبد المنعم الشريف" هكذا أطلق على نفسه وكان هذا اليوم هو السابق للامتحان، اشتد قيظ الحر في هذا اليوم فقرر والداي الذهاب إلي البحر بصحبة أختي الصغيرة مريم وتركوني وحدي.

لا زالت كلمات أبي المتكررة ترن في أذني إلي هذا اليوم :

اقعد ذاكر بدل ما تفضحنا، كفاية دخلنا أدبي.

دائما ما يعطيك الأهالي انطباع أن الثانوية العامة هي نهايتك المأساوية إذا لم يكن مجموعك في أفضل أحواله، لم أكن بالطالب الذكي لذلك اختصرت الطريق على نفسي واخترت أدبي ليس لأنني أحبه بل لأنه الخيار الأسهل نوعا ما فالمعادلات العضوية لمادة الكيمياء توقف عمل مخي، أما عن الفيزياء فقوانينها تجعلني أتمني أن نعود إلي العصر الحجري حيث الحجارة فقط ولا شيء آخر.

بعد أن جمعت أغراض مادة التاريخ لأبدء المراجعة، شرعت في تفقد المذكرات الثلاثة كان الأمر أشبه بأن ترمي بنملة في المحيط الأطلنطي ثم تطلب منها أن تعبره في يوم واحد.

اعتراني الملل من أول ٥ دقائق مضت .. حقاً ماده مملة.. لا أفهم ما الفائدة أن تدرس شيء قد انتهى من مئات السنين وأمسي من الماضي السحيق.

حينما بدأ الملل يفقدني صوابي اتصلت بأحد أصدقائي ليأتي لنذاكر معاً، ليشجع أحدنا الأخر.. في بعض الأحيان ينجح هذا الأمر، وربما لا ينجح وينتهي بنا الأمر في نهاية المطاف إما نائمين أو نتصارع علي من سيلعب بريال مدريد.

حضر صديقي أحمد وبداخله حماس لا ينضب ترتسم علي محياه ابتسامه أعرفها جيدًا فدائمًا ما تقلقني هذه الابتسامة في حد غيرنا في الشقة

أجبته بالنفي فاستأنف كلامه: وأنا جيلك قبلت الواد سعيد الدحيح

وعرف إني جيلك فعطاني حبايتين وسيجارتين وقالي دول هيخلوك تلحق تراجع المادة كلها النهارده

- يا عم دا عبيط سيبك منه

- طاب .. لو العملية قفلت معانا هنخدهم .. مش هنخسر حاجه

- ماشي

بعد ساعة مرت أغلقت عقولنا أبوابها فتوقفنا عن الاستيعاب وبدء كلاً منا ينظر إلي الأخر وشعور الإستغباء يصرعنا.

انتهت هذه المسرحية بتناولنا لحبيبات البرشام ومن بعدها السيجارتين

لم تكن هذه هي المرة الأولي التي أنفث فيها النيكوتين ولكن هذه المرة كانت مختلفة، فورقة التبغ ملغمة ببعض لقيمات الحشيش.

بعد عدة أنفاس .. بدء الوقت يتباطىء وصوت دقات عقارب الساعة يعلو .. يعلو .. حتى توقفت الساعة وتلاشي الصوت تمامًا.

فجأة تمددت الغرفة طولًا وعرضًا فاِختفت الجدران كلها ونبت في الأرض حشائش خضراء كنت أحسبها وهماَ حتى تحسستها بقدمي، فتح باب الخزانة فخرجت منه مجموعة من الهنود الحمر لا يلبسون إلا ما يستر عوراتهم، مشغولين بمطاردتة غزالة أصبحت فريسة لهم، القوس والنبال هي أسلحتهم بالإضافة إلى عصي حادة الطرف، وقفت متجهمًا أجول ببصري في المكان باحثًا عن صديقي فلم أجده، تساءلت في نفسي .. أمعقول أن يكون دهس بواسطة الديناصور الذي عبر أمامي منذ لحظات؟

لا.. هذا غير منطقي كنت سمعت صوت صريخه علي الأقل

ظهر من المجهول بعض الجنود الإنجليز يتقامرون عليَّ مَنْ سيقتل الفلاح الزاحف علي الأرض.

تكور سريري على بعضه ونهض من بين جنبات حطامه.

عرش عظيم يحمل فوقه امرأة جميلة ترتدي تاج فوق رأسها

نادي صاحب البوق :

- مولاتي الملكة نفرتيتي في انتظارك يا يونس ..

ارتعدت فرائصي وتهتكت أوصالي حينما زمجر الأسدين المحيطان بالعرش ... أعلم أن هذا كله محض هلاوس ولكنه يبدوا لي حقيقي على الأقل هذا الأسد الذي يرمقني بنظره الفريسة السائغة ليس هلاوس.

أعاد صاحب البوق ندائه مره

-أخي

ولكن هذه المرة بنبره حادة:

- تنتظرك الملكة نفرتيتي

كانت ملامح الغضب قد انطبعت علي وجه الملكة كأنها تحذرني من عدم المجيء إليها:
أغمضت عيني حتى تجاوزت الأسدين بلهجة يملأها الدلال والرقة قالت :

- أقبل إلي أيها الغلام

اضطربت دقات قلبي خجلًا وتسارعت أنفاسي حينما أفاضت إلي بطلبها الأول فكان أن أجلس بجوارها علي العرش.

تمنيت في هذه اللحظة ألا تنتهي هذه الهلاوس، أحضرت إحدى الجاريات وعاء مليء بكل أنواع الفاكهة التي أعرفها والتي لا أعرفها، ناولتني تفاحة قطمت منها عضة خفيفة ثم وهبتها لي، دسستها في جيبي تخليدًا لذكراها قالت:

-انتظرنا كثيرًا أيها المختار.. هل أنت جاهز لأداء مهمتك؟

فجأة اقتحم علينا المكان رجلًا ذو أنف طويل ووجه أطول علمت هويته بعد أن نفخ صاحب البوق وأعلن قدومه فكانت الملك إخناتون ولقبه أمنحوتب الرابع، عندما لمحته كدت أن أهرب حتى أمسكتني الملكة نفرتيتي من ذراعي..

يا ليتني

تناولت هذه الحبايه منذ زمن.. يد عزيزتي نفرتيتي تلامس يدي.. هذا هو التاريخ بحق، رحب بي الملك إخناتون بحفاوه علي عكس ما توقعته:

مرحبًا بك أيها المختار.. أخيرا حضرت.. حان وقت إعلان الديانة الهينوثية

لم أفهم ما تلك الديانة فتوجهت بسؤال إلى نفرتيتي:

- ما هذه الديانة التي يقصدها الملك؟

إنها ديانة جمع كل الألهه في إله واحد وهو أتون إله الشمس وأنت المختار لهذا الإله

ابتلعت ريقي بصعوبه.. أتمني أن يكون الأمر بعيدًا عن ما يجول في خاطري بلسان متلعثم قلت: وماذا سأفعل أنا؟

أراحت قلبي بقولها:

- لن تفعل شيء، قبل أن تذريني: فقط ستقدم

كقربان للإله أتون، كان شكي في محله فجحظت عيني ذهولًا وفي غمضت عين كنت في مهب الريح أركض في الأنحاء مبتعدًا عنهم، صرخت صاحبة السمو في خدمها:

- اقبضوا علي هذا الخائن.

بينما صب الملك جم غضبه علي مرودي الأسود فأمرهم بمطاردتي وإحضاري حي اندسست وسط مجموعه الهنود الحمر أو بمعنى أدق ما تبقي فقد التهم الأسدين الجزء الأكبر منهم، أنبني ضميري لكسر من الثانيه ثم عدت أركض مجددًا، لمحت من بعيد بوابة بداخل الخزانة التي خرج منها الهنود الحمر فدلفت إلي الداخل، أثناء عبوري من البوابة للوهلة الأولي شعرت بجسدي يرتطم بجدار مائي ولكن إختفي هذا الشعور عندما وصلت إلي الجانب الآخر من البوابة، كانت تؤدي إلي قاعة بيضاء كبيرة جداً أقيم علي أرضها حفلًا مهيب يضم عدد كبير من أفراد الطبقة الأرستقراطية لا يحتاج الأمر إلي ذكاء فما يرتدونه فقط يوضح إلي أي طبقة هم ينتمون، اِضاءت القاعة كانت أشبه بسطوح الشمس على مكان مظلم فجعلته نوراً وضاح يتلألأ بلمعان ذهبي ينعكس علي كؤوس المشروبات المنتشرة بين أيدي المدعوين بالاِضافه إلي بلورات زجاجية بمنتصف القاعة لها ضوء يرنوا إلي القمر كسمفونية باهرة الجمال..

زينت أغلب أرجاء القاعة بأطباق فاكهة كرستالية تحمل بين دفتيها من الفواكه ما لا أفقهه.. بينما أنصت أغلب الحاضرين إلي فرقة الموسيقة الكلاسيكية التي أضافت لونًا مميزًا من البهجة فأكتملت بذلك تلك الصورة المثالية، لم يعكر صفو المدعوين إلا رؤيتي..

فانغمست أعينهم بالنظر إلي في شيء من التقزز.

كانت نظراتهم لي تضاهي رؤيتهم لكلب يبول علي نفسه.

لاح لي من بعيد رجل يرتدي زى عسكري عُلِقت على ذراعه اليسرى شارة حمراء طُبع عليها باللون الأسود رمزاً غريبًا.. يتوسط وجهه شارب صغير غير مترامي الأطراف شق جزءه العلوي طريقة بداخل أنفه فبدا كما لو أنه جزء واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر، مع شعره النائم علي جانبه الأيسر بصحبة آخر يمتلك صلعه تعكس أنوار القاعة فتلمع كسطح أملس .. ذو ملامح صارمة تبعث علي عنف مكبوت بداخله.

لاحظ نظراتي إليه فأمر أحد جنوده بإحضاري، بينما الجندي يقودني إليه قابضاً علي ذراعي سألته :

- من هؤلاء؟

بلهجة سريعة بلكاد إلتقطها قال:

- الرئيس هتلر.. وبصحبته الرئيس موسوليني..

لا يمكن أن يصبح الأمر أسوء من ذلك فإما التضحية بي كقربان أو الموت علي يد أعتى مجرمي الحرب ذكراً في التاريخ .. لهذا أكره التاريخ وبشدة.

اقترب مني هتلر فأخذ يتفحصني بنظرات مريبه حتي باغتني بسؤال غريب بعض الشيء : هل أنت يهودي؟

بشفاه مرتعشة قلت: لا

تعالت أصوات قهقهته وهتف : إذاً أنت مرحباً بك في هذا المكان

عادت الفرقة الموسيقية إلي أنغامها من جديد وعاد معها رقص المدعوين .. كنت كغريب الدار بهذا المكان فشرعت بتفقد أركانه حتي عثرت في نهاية القاعة على بوابة كبيرة تناسب العمالقة كأنها شيدت لهذا الشأن تعتبر هي المدخل الوحيد إلي القاعة، تخطيتها ..

كانت أصوات الموسيقي تتردد في الأفق فبدت خافته كلما ابتعدت عن هذه البوابة.. تمشيت في ممر كبير يطغى عليه اللون الأبيض من الأسفل ومن الأعلى مطلي باللون الأزرق يتوسط السقف رسومات لغيوم تشعر للوهله الأولي أنها جزء حقيقي من السماء.

فجأة صدر صرير له طنين مزعج أشبه بفتح أبواب عتيقة مع بعضها في نفس اللحظة، فإنبثق من جدران الممر خطوط علي هيئة أبواب فتحت من تلقاء نفسها.. بداخلها ظلمة لا تنتهي، إقتربت بحذر موقد من الباب الأول ومع أول خطوة بداخله أضاء في عيني نور من المجهول.

عدت للخلف الخطوة التي بادرت بها فعادة الظلمة هي مرآتي

أسرعت في خطوات ثابتة إلي الداخل عكست شعلات النار الموقدة بأركان الغرفة الرؤية علي عيني فتهيئة لي الرؤية بشكل طبيعي، دون علي سقف الغرفة باللون الأحمر الدامي كلمة بالخط العريض كانت (يونس) لم تجذب انتباهي بالشكل الكافي فتوغلت بداخل هذه الغرفه الشاسعة، ترأت لي مجددًا تلك الخيالات المتحركة التي خطفت عيني لحظة دخولي .. فكان هناك رجلان بزى عسكري يحملان رجل آخر مصاب بحروق بالغة في يده ملامحه قريبة مني .. قريبًا بالشكل الكافي الذي جعلني أراه أنا.. بل هو أنا في الحقيقة في عنف يتراقص علي أعينهم وضعوه على آلة حادة الطرف،

عاد صوت الصرير المزعج من جديد فلمحت باب الغرفة يغلق

أسرعت بالركض فنجحت بالخروج قبل إغلاق الباب بثواني معدودة.. تحركت جدران الممر من مكانها لتضيق الخناق على فواصلت سلسة ركضى حتي وصلت إلي البوابة المهيبة للقاعة، أشحت بنظري إلى الخلف فوجدت الممر قد التحم ببعضه فصار حائط واحد لا يشوبه أي تعاريج، كان هذا حينما توقفت لألتقط أنفاسي عند مدخل الحفلة، فتحت بوابة في منتصف القاعة خرج منها الملك إخناتون وبصحبته الأسدين

بمروديهم .. تاليه في ركابها الملكة نفرتيتي ومعها جنوداً أشداء يصاحبهم ما بقي من الهنود الحمر وشرارات الغضب تتراقص على أعينهم ..

هرع الحاضرين بالركض والعويل بينما وقف هتلر ومن ورائه موسوليني في ثبات يُحسَدون عليه، يضاف إليهم فريق من الجنود الذين شكلوا مجموعة صفوف متوالية كدفاع متأهب، طالب الملك والملكة بي كحق شرعي لهم .. أخذ هتلر يتفحصهم في تأني.

أعرف هذه النظرات وما تليها من سؤال، أسرعت إليه في وجل وأفضت إليه برصاصتي القاتلة: إنهم يهود..

قلتها بنفس متقطع

لم يتريث في قراره فأطلق زفير الحرب، دارت معركه طاحنة

لقي معظم المحاربين علي أثرها مصرعهم، في وسط هذا العراك ناداني شخص يرتدي مثل الهنود الحمر ملامحه قريبة من صديقي أحمد مختبئ بعيدًا عن هذه المعركة الضارية فذهبت إليه بعد أن تفاديت العديد من الأسهم المارقة ..

أزال قبعة القش من علي رأسه فإذا به أحمد :

- ايه اللي عمل فيك كده؟

- معرفش أنا لقيت نفسي في وسط مجموعة الهبل دول عمالين نطارد غزالة شاردة من الصبح ..

بدأ يبكي .. كان بكائه أقرب لصوت بكاء عجوز كهل،

أردف: وفي أسدين طلعوا علينا كلوا معظمنا

بسعادة قلت : طاب اِهدى وأنا هوريك حاجة مش هتصدقها

أخرجت التفاحة الموقعة شخصياً بأسنان نفرتيتي وقبل أن ألفظ كلمتي الأولي التقط أحد أغبياء الهنود الحمر تفاحة وقذف بها في اِصابه مباشرة إلي رأس هتلر.. كان

هذا الأحمق يجاورني بخطوات قريبة.. إتجهت أصابع الاِتهام إلي الشخص الوحيد بالمكان الذي يحمل بيده تفاحة ومن سوء حظي كنت أنا هذا الشخص،

صرخ هتلر قائلاً:

- أحضروا هذا الخائن

بينما هتف الملك في رجاله :

- احضروا هؤلاء الخونة.

تفاقمت الأمور فبات حالنا هو الركض حتي أطبق علينا الجنود علي اِختلافهم في دائرة بمنتصف القاعة تحت مجموعة البلورات الزجاجية التي بدءت بالاِنهيار فوقنا

ما ذكره لي أبي تاليًا أنه حينما عاد إلي البيت وجدني أركض في الشقة كالمجنون بدون أن أتوقف، بينما جلس أحمد القرفصاء بمنتصف السفرة كصنم لا يتحرك قيد أنمله

مكثنا علي هذا الوضع حتي عدنا إلي طبيعتنا، ما حدث كان الطامة الكبرى في كرهي للتفاح للأبد ..

سأخبرك شيئاً إضافي حتي تتوقف عن التفكير ولا تطمح في تكرار تجربتي ذات النهاية البائسة .. نعم .. نجحت المدرسة كلها في مادة التاريخ إلا أنا وصديقي أحمد .

تمت

(صرخة ممر)

انطلقت من القاهرة إلى مدينة طنطا مع صديقي وإبن خالي حازم الذي يعمل وكيلًا للنائب العام هناك، وكانوا قد استدعوه فجأة بعد اكتشاف جثة لفتاة في أحد المصارف، لم يكن حازم مجرد صديق أو ابن خالي فقط لقد كان توأم روحي الذي أرتبط به منذ الطفولة ولم نفارق بعضنا، حتى بعد تخرجنا في كليتين مختلفتين، ظللنا مترافقين في كل شيء، لم يدم على وصولنا كثيرًا حتى استقبلنا مفتش المباحث الذى رافقنا لمعاينة الجثة في مكان اكتشافها في أحد المصارف البعيدة، ويا لهول ما رأيت.

جثة شبه متحللة ومشوهه لفتاة في بداية العشرينيات قدر مفتش المباحث توقيت الوفاة منذ ثلاثة أيام، شردت في ملامحها المشوهة أكاد أن أراها فتاة جميلة حتى تعلقت عيناي بتلك الندبة المميزة في جبهتها.

انتقلنا إلى مبنى النيابة، وبدأ حازم التحقيق مع المشتبه فيهم، وحين قاربت الساعة منتصف الليل تململت في جلستي التي لاحظها حازم.

"اطلع استناني في الاستراحة وأنا هاطلع وراك أول ما أخلص"

لم أعترض على كلماته فقد كنت مللت الجلسة بالفعل، وانتظرت حتى استدعى أحد أفراد الحرس وطلب منه وضع حقيبته في الاستراحة القابعة في الدور الأخير.

صعدت مع الجندي للدور الأخير حيث كانت هناك ردهة كبيرة شبه مضيئة تقود إلى ممرين أحدهما مغلق بباب حديد وكأنه سجن والآخر طويل مصمت ومظلم إلا من انعكاس بعض من ضوء الردهة على أول الممر.

تردد الجندي وهو يسير إلى داخل الممر المظلم، ممر حالك السواد بلا نوافذ فقط

أبواب مكاتب مغلقة وجدران باردة لا حياة فيها، حتى وصلنا إلى منتصفه لتحال الرؤية.

أخرج الجندي عود ثقاب من طيات ملابسه وأشعله يكاد أن يضيء بصيصًا من الضوء لخطوات قليلة أمامنا حتى وصلنا إلى أخر الممر لألتفت خلفي لأجد ضوء الردهة بعيدًا جدًا ثم عدت لأنظر أمامي لأرتطم بالجندي الذي كان توقف فجأة وصرخ فزعًا بسبب ذلك.

لم تكن تلك هي نهاية الممر، بل كانت زاوية توجه الممر لليسار لممر آخر أقصر، لنتوقف عند باب غرفة مغلقة من الخارج بمزلاج صدئ عليه قفل حديث.

فتح الجندي الباب بصرير يصم الآذان، ودلف إلى الغرفة وأضاء نورها الأبيض ليكشف عن غرفة مزودة بفراش ودولاب وطاولة عليها تلفاز قديم شبه محطم.

وضع الجندي الحقيبة داخل الاستراحة وما أن فعل حتى أطلق ساقيه للريح وأسمع خطواته الراكضة بطول الممر حتى اختفت.

أغلقت باب الحجرة الذي أصدر نفس الصرير لألمح خيالًا في الظلام يتحرك بسرعة، لم أتبينه وظننت أنني واهم.

مرت الدقائق الأولى مستكشفًا للغرفة شبه الخالية، قبل أن أقرر أن أطفئ النور وأمدد قدمي على الفراش وأنا أتذكر مشهد جثة الفتاة وفستانها المشجر بالألوان الزاهية التي لطخها طين المصرف، وتذكرت تلك الندبة التى على جبينها والتي كانت تشبه كثيرًا نفس الندبة التي على رأسي والتي أصبت بها منذ عام في حادث سير، حين كنت مسافرًا بسيارتي على الطريق الصحراوي، وأصطدمت بي إحدى سيارات النقل على الطريق، وعلى الرغم من أنها كانت إصابتي الوحيدة فإن كل من شاهد سيارتي يكاد يقسم أنه لا يمكن النجاة منها.

كانت الأحداث كثيرة منذ وصولنا وتحقيقات حازم مع المشتبه فيهم كثيرة وطويلة،

وحضور ضباط المباحث والبحث الجنائي، وظللت أراجع أقوال الشهود والأقارب المتباينة فذلك قال إنها فتاة لعوب وآخر قال إنها ونعم الأخلاق، لأشرد مرة أخرى في مشهد الجثة الراكدة على ضفة المصرف وفي تلك الندبة في منتصف جبهتها حتى غافلني النوم من التعب.

لم أدرِكم من الوقت مر حين استيقظت على صوت باب حديد يغلق بقوة، ونظرت في ساعتي لأجدها قد اقتربت من الواحدة بعد منتصف الليل، أغمضت عيني مرة أخرى محاولًا النوم ولكن صوت خطوات في الممر أذهبت النوم من عيني، وظلت الخطوات تقترب في رتابة وبطء مخيف، حتى وصلت أمام باب الغرفة وتوقفت، وتوقف معها الزمن.

مرت الثواني في صمت حتى استجمعت شجاعتي وقررت فتح الباب، تحركت على أطراف أصابعي وأمسكت بمقبض الباب قبل أن أفتحه بقوة ليطلق صوت صرير عاليًا وأقف أمام الفراغ.

لا يوجد أحد، أضأت نور الغرفة لينسال منها الضوء للممر دون جدوى، الممر خالٍ تمامًا خرجت لأستطلع باقي الممر حتى الردهة، لا شيء لألتفت وأعود إلى الغرفة لينخلع قلبي على ذلك الخيال الواقف في الظلام ينظر إليّ وعيناه تعكسان نور الغرفة كعيني القط في الظلام.

- "مين؟"

اقترب الخيال مني ببطء وتردد لأجده رجلًا يرتدي زي جندي وعلى وجهه علامات الخوف والتعجب، قبل أن يسألني بلهفة.

- "أنت مين يا فندم"

- "أنا قريب حازم بيه، أنت بتعمل إيه هنا؟"

التفت يمينًا ويسارًا قبل أن يرد بهمس:

- "أنا حراسة"

اقتربت منه حتى غمرني ضوء الغرفة ليشهق شهقة مكتومة وهو ينظر إلى وجهي.

- "أنت تعرفني؟"

هز رأسه نافيًا قبل أن يجيب.

- "لأ، بس أعرف حد يعرفك"

لم أفهم جملته الأخيرة وكدت أن أستفسر منه لولا تلك الصرخة العالية التي أتت من الردهة أو هكذا ظننت.

- "إيه الصوت ده؟"

اختفت نبرات الخوف من صوته وتحولت إلى الجدية وازدادت عيناه لمعانًا وهو يقول.

"دول ناس يعرفوك وكانوا مستنيين يقابلوك"

انسلبت مني إرادتي وأنا أتبع الجندي الذي اتجه ناحية الممر وهو يشير لنهايته.

- "من هنا يا فندم"

تبعته بخطوات متثاقلة ودقات قلبي الهادرة تدك ضلوعي تكاد تحطمها من الخوف والتوتر.

الممر لم يعد كما كان حين مررت به من ظلام حالك، فالجدران أصبحت مشعة بلون أزرق باهت وظهرت كلمات منتشرة على طول الممر حروفها مشعة بالأزرق الفاتح مكتوبة بخط اليد، بعضها غير مفهوم وكلمات أخرى واضحة ومبعثرة على الجدران.

(مظلوم، العدل، الرحمة، الإنتقام)

حتى وصلنا إلى الردهة ليكمل الجندي طريقه ناحية الباب الحديد في أول الممر المقابل وأخرج مفتاحًا عجيبًا من طيات ملابسه يشبه مفاتيح البيوت القديمة ليفتحه ويدلف إلى الداخل مشيرًا إلى أن أتبعه.

تذكرت حين مررت من أمام ذلك الباب سلفًا لم يكن هناك أي شيء مما أراه الآن، الوضع تبدل تمامًا، كان الممر مليئًا بالناس على كل شكل ولون، وأنا أسير وسطهم خلف الجندي قبل أن تستوقفه تلك السيدة العجوز التي ترتدي جلبابًا أسود متربًا وشعرها الأبيض يظهر من أسفل منديل أسود فوق رأسها.

"ولادي ماجوش يا صابر يا ابني"

"لأ يا أم حسين لسه"

"إسمك صابر؟"

التفت إليّ مبتسمًا وأومأ بالإيجاب.

"مالها يا صابر الست دي؟"

"ابنها حسين كان عايز يتجوز في بيتها وخاف يطردها الناس تاكل وشه، راح خنقها وقال ماتت موتة ربنا"

صدمت من كلمات صابر وأنا أطالع عينيها الحائرتين تبحث عن ابنها وقاتلها.

وفجأة أمسكت يد ما برسغي، لأنظر لليد التي تمسكني لأجدها محروقة يتصاعد منها دخان الحريق لأنظر لوجه صاحبها لأجدها فتاة قد أكلت النيران نصف وجهها ورقبتها، فزعت من المنظر وأفلت يدي بعصبية من يدها وهي تنظر لي بعين واحدة سليمة.

"عايزة أمي"

فزعت مرة أخرى وهربت من أمامها وصابر يرد عليها دون أن ينظر لها.

"مش وقته يا صابرين بعدين"

"ومين دي يا صابر"

"دي صابرين أبوها شك في سلوكها قام ولع فيها حرقها وقال إنها هي اللي ولعت في نفسها"

كدت أن أصرخ معترضًا على بشاعة الجريمة ولكن خطواته المتسارعة لهدف ما أجهله جعلتني أصمت، قبل أن نتوقف أمام طفل يجلس وحيدًا في الزاوية ويقترب منه صابر ويخرج قطعة من الحلوى ويعطيها إياه.

"امسك يا مصطفى، جبتلك حاجة حلوة"

أمسك الطفل الحلوى دون أن يبدي أي مظاهر فرح بها وعيونه البريئة تنظر لي ويسأل صابر:

"أبويا جه؟"

"لسه يا مصطفى، في الطريق"

وتركناه وعيونه لا تزال معلقة بعيوني حتى انخلع لها قلبي.

"والعيل ده ماله؟"

التفت صابر إليّ وهو يمط شفتيه

"ده كان عمه خاطفه وطالب فدية من أبوه، وعلى الرغم من أن أبوه دفع الفدية قتله علشان ما يشهدش عليه"

كاد قلبي أن يتمزق لتلك الجرائم البشعة قبل أن أفطن لشيء مهم، مهم جدًا.

إنهم كلهم أموات..

أين أنا؟

وكيف حدث هذا؟

كدت أن أواجه صابر بأسئلتي قبل أن يشير إليّ بالصمت حين توقفنا أمام باب غرفة مغلقة وأشار لي بالدخول، اقتربت من الباب بحذر شابه التوتر من ملامح وجهه الحادة، وهو يبتعد من أمامي، أمسكت مقبض الباب وأدرته ليلفحني ضوء ساطع يغمر الغرفة، حتى حولها إلى كتلة من النور أخفت معالمها، التفت إلى صابر لأفاجأ بأنه قد اختفى من

الممر هو وكل الناس التي مررنا بها، وعاد الممر كما رأيته أول مرة خاليًا، كدت أن أعود أدراجي إلى الاستراحة خوفًا، لولا أن أوقفني ذلك الصوت الناعم الرقيق.

"استنى ما تمشيش"

نظرت إلى الغرفة مرة أخرى وأنا أخفي الضوء القوي عن عيني بذراعي، لألمح خيالًا في الضوء، لحظات وبدأت عيني تتكيف مع شدة الضوء، وتحركت بخطوات بطيئة إلى داخل الغرفة، حتى وصلت إلى منتصفها في غيمة من الضباب، وإذ بصاحبة الصوت تظهر أمامي تبارك الخلاق، فتاة مشرقة الوجه باسمة المحيا صافية البشرة واسعة العينين، ولكن العجيب أن شكلها ليس غريبًا عني أنا متأكد أنني رأيتها من قبل ولكن لا أذكر أين.

"أنتي مين؟"

"يااه معقول نسيتني؟"

"مش فاكر"

"طيب ركز كده في وشي"

اقتربت منها قليلًا وأنا أتطلع لوجهها الملائكي، من ذقنها المزين بطابع الحسن، وشفتيها المحددتين، وأنفها المستقيم، وعينيها الخضراوين، حتى وصلت لجبهتها لأجد تلك الندبة، الندبة التي رأيتها اليوم على جبهة القتيلة.

"مستحيل!"

ليبدأ وجهها بالتحول إلى اللون الأزرق، وتتجمد حدقتا عينيها، وتبيض شفتاها، وتتحلل وجنتاها، كاشفة عن عظام جمجمتها وأسنانها المتراصة، قبل أن تضع يديها المتحللتين على صدري وهي تتكلم بصوت مبحوح كفحيح أفعى الكوبرا.

"افتكرتني؟"

انتفضت مع لمستها كمن صعقه البرق، والتفت مكاني أبحث عن الباب الذي اختفى

وسط الضباب كالممسوس.

"مراد"

توقفت وأنا ألهث تكاد أنفاسي أن تنقطع على صوتها وهي تنطق اسمي، لأنظر لها وقد عادت هيأتها الأولى

"عرفتي اسمي منين"

ابتسمت ابتسامة ساحرة وهي تتمتم بدلال.

"إزاي ماعرفش إسم حبيبي اللي هيجيبلي حقي"

"إسمك إيه؟"

"شهد"

"وعايزة مني إيه يا شهد؟"

عبس وجهها وهي تنظر بحسرة إلى الأرض.

"عايزة حقي من اللي قتلني وحزن أبويا وأمي وكمان لطخ سمعتي"

"مين يا شهد؟"

"تعالى قرب مني، وما تخافش وأنت هاتشوف كل حاجة"

اقتربت منها ببطء وأنا أتذكر هيئتها المتحولة منذ ثوانٍ، ولكن شيئًا ما في ابتسامتها الملائكية وضع الطمأنينة في سريرتي، وقفت قريبًا جدًا منها، حتى أنني تبينت خريطة قزحيتها الخضراء، وتبدلت ابتسامتها بالحزن وهي ترفع يدها ببطء وتضعها على صدري فوق القلب.

تحولت الغرفة بسرعة البرق وانقشع الضباب لأجد نفسي في موقع الحادث بجوار الجسر أعلى المصرف، وها هي شهد تأتي من بعيد على الجهة المقابلة للمصرف، نفس ابتسامتها وضحكة عينيها، وكأنها سمعت للتو أحلى خبر في حياتها، وفجأة من داخل غيط الذرة بجانب المصرف يخرج أحد الرجال، الذي تعرفت عليه فورًا فقد كان أحد المشتبه

فيهم، ووقف أمامها وتحدث معها بصوت غير مسموع، بل إن المشهد كله بلا صوت، تحولت ملامحها إلى الحدة أمام كلام الرجل ونهرته وانصرفت، تلفت الرجل في كل اتجاه فلم يجد مَن يراقبه، ليخرج عصى أخفاها بين طيات ملابسه، وانهال على رأسها، لتسقط أرضًا دون أن تفقد الوعي، ويجرها إلى حقل الذرة، ويحاول أن يعتدي عليها، وحين بدأت في الصراخ أطبق بيديه على رقبتها ولم يتركها إلا جثة هامدة، ثم جرها على الأرض من قدميها، وقذفها أسفل الجسر، وأحضر حجرًا ووضعه على جسدها، ليقبع في قاع المصرف ويهرب، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ، والعجيب أن الرجل التفت ناحية صوتي، وكأنه سمعه دون أن يراني، ليبدأ الهرولة واندفعت خلفه وأنا أصرخ به ليزيد من سرعته وأنا أجري خلفه، حتى اقتربت منه وكدت أن أطبق بيدي على تلابيبه لأسمع صوتًا ينادي عليّ، لم ألتفت للصوت واستمررت في المطاردة لأسمع مَن ينادي عليّ مرة أخرى بصوت من بعيد، وفجأة عاد كل شيء للتحول مرة أخرى، لأجد نفسي وأنا أركض في الممر المتجه ناحية الاستراحة، الممر المظلم، وصوت يناديني أوضح من المرة السابقة.

"مراد"

توقفت عن الركض والتفت خلفي في الممر المظلم لأجد حازم واقفًا بذهول يحدق بي.

"أنت بتعمل إيه؟"

التقطت أنفاسي بصعوبة وأنا أرد على حازم.

"استدعِ كل المشتبه فيهم أنا عرفت القاتل"

دخل المشتبه فيهم أمام حازم وأنا بجواره، وما أن وطئت قدم القاتل الغرفة حتى همست لحازم:

"هذا هو القاتل"

أطبق حازم الخناق على القاتل لينهار ويعترف بجريمته، وبكامل تفاصيلها فقد كان ابن عمها وكان يحبها وجنّ جنونه حين علم بخطبتها لرجل آخر، والمثير في اعترافاته أنه

سمع صوتًا يصرخ عليه بعد الحادث ولكنه لم ير أحدًا هناك، ما قذف الرعب في نفسه وهرول من المكان وهو لا يعلم ممن يهرب.

جلس حازم معي وهو شارد بعد أن أنهينا التحقيق وأرسل القاتل إلى السجن، قبل أن تقطع شروده دقات على باب المكتب، لأفاجأ بدخول صابر علينا، فقد كنت أظنه طيفًا مثل باقي الأطياف التي قابلتها في الممر، تبادل معي النظرات قبل أن يقف أمام حازم يسأله.

"أنت شايفه؟"

"أيوة يا فندم"

"إزاي؟"

"زي ما شفت الناس اللي في الممر وحكيت عليهم وحسن بيه رئيس النيابة ماصدقنيش"

"طيب انصراف يا صابر"

خرج صابر من المكتب وأنا غارق في متاهة لم أفهم ماذا حدث.

تمتمت بكلمات متقطعة.

"مش فاهم حاجة يعني إيه شافني زي بقية الناس هناك؟"

"علشان أنت زيهم يا صاحبي، أنت إزاي مش فاكر يا مراد؟"

صمت وشردت في الماضي، يوم الحادث بعد الأصطدام تهشمت ضلوعي على مقود السيارة قبل أن يرتطم رأسي لتشج لنصفين قبل أن تموج الصور أمام عيني والدماء تغمرهما قبل أن تنطفئ جميع الأنوار إلا ذلك الممر الطويل المظلم بضوء أبيض في نهايته و..

"أموت"

تمت

(الخردق)

أعرب النهار عن مجيئه، و أدمعت الشمس في خشوعٍ إلي ربها، و العصافير اتخذت بيوتها أشجارًا، و الكون البديع مغطي بحلاوة الشموخ ولا شئ يترنح في الأفق إلا رقص السحب بجانب بعضها البعض، بينما هو مكث في غرفته يشرب الخمر

و يداعب بنصل خنجره مكتبه الخشبي المصمم بطراز إسلامي رفيع المستوى، و أسماء الله الحسنى تحيط من جوانبه كافة. لا شئ في مكتبه ينأى عن بطولة المقاتلين، فالسيوف معلقة في جواربها، و لوحة التصويب، والخردق منتصبة بجانبه،

ووراءه أريكة من الحرير و بزته العسكرية معلقة علي الحائط و كل شئ متراص في مكانه في وضع انتباه.

- قال محدثاً نفسه وهو يرتشف الخمر ويغرز نصل الخنجر في مكتبه فيثقب مكاناً ثم يتولى إلي آخر:

كم كنا أبرياء و سُذج، عشنا العمر ولا نعرف فيما مضى، الأيام و الأيام فاتت و نحن في ذهاب، من مجابهة الروس لغيرهم و غيرهم، و من فتح بلادٍ لبلاد، و من غزوة إلي غزوة، ولكن أين الحقيقة التي نحن نبحث عنها ؟

و هل الله راضياً عنا؟ يمكنني أن أقول بأن الدافع الوحيد لصهوة جوادي وصوت صليل سيفي هو شعوري بأن الدم هو قربانٌ لله. أيمكن أن تكون تلك النشوة التي نتبادلها بعد الإنتصار تلو الإنتصار كذبة؟

- ابتعد قليلاً إلي الوراء ومدد قدماه علي المكتب والخمر في يساره والخنجر يداعب به مرة آخري ولكن هذه المرة يداعب به ساعد الكرسي ثم أردف وقد انتابته حمى السُكر:

أيا أيها الآله إنني لا أعلم هل أنا نصرانياً أم مسلماً؟، أجبني يا عزيزي فأنا قد قدمت إليك معروفاً كثيراً في الحروب،

و قاتلت باسمك و تحت رايتك، إنني لا أعلم محمداً هذا الذي يرددون بأنه رسولك، و لكنني شئ ما يرتعش بداخل فؤادي و يشعل به نار الخوف من القادم و المجهول، إنني لا أعلم هل اسمي الحقيقي هو قاسم أم بطرس، و ما الذي أتي بي إلي هنا ؟ و هل هذا هو الذي اخترته من الحياة ؟

لعنة الله عليك أورخان غازي كيف سرقتنا من أنفسنا و من أهلونا.

ترتعش يديه و تحمر وجنتيه ثم يكمل :

و لكن .. إن عيناي لم ترى إلا المساجد و الوضوء و الصلاة، و رب التكبير و رب التهليل، و رب البيت العتيق،

أكل هذا سراب ....!

فهل نحن دماءنا التي تجري في عروقنا من أصول مسيحية كما قال أسقف الكنيسة عند مروره من أمام ناصيتنا، أم نحن لمن نعود؟

لو كنت علي قيد الحياة أورخان غازي لوضعنا جميعاً سيوفنا في قلبك علي ما فعلت بنا! إننا لا نعلم هويتنا، إننا لا نعلم هل نوقد الشموع للمسيح أم نركع و نسجد لرب الكعبة !!

أيمكنك أن تتخيل يارب الأرض كيف أخطف من صدر أمي و أنا رضيع لأوضع في دينٍ جديد و هوية جديدة!

فأين أمي و أين أبي؟ و هل إن كانوا علي قيد الحياة سيعرفوني أو أنا سأعرفهم؟

و لماذا كل هذا الحنين بداخلي للمسيح؟ و ماذا عساني أن أفعل بعد أن علمت الحقيقة أأضع خنجري في قلوب المسلمين كفارةً لدماء المسيحين التي أرهقتها بإسم

الإسلام؟ أم أقتل نفسي حتي لا يستغلني ولا يغتصب هويتي كائناً آخر ؟

اللعنة علي الوجود .. اللعنة علي الحياة. اللعنة علي الإمبراطورية و من ولاها، ثم قام صارخاً و سحب سيفه من خنجره

ومزق راية التوحيد المعلقة علي حائطه ، ثم قال غاضباً: أي منفعة حمقاء تلك التي ارتضتها لنا أورخان غازي ..

قل لي أيها اللعين ما هي؟، ثم هوي كالصخرة في المحيط علي أريكته و وضع رأسه بين كفيه و أجهش في البكاء ..

حتي قطع أحد الخصيان البيض بكاءه ببضع طرقات علي بابه، ثم أذن له بالدخول، فدخل المخصي و قال له:

- سيدي إن الفرقة كلها بالخارج تنتظرك.

- قال له و ما زالت رأسه بين كفيه:

قل لهم بضعة دقائق و سأخرج إليهم.

- حسناً يا سيدي.

ثم خرج المخصي ذو البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعينان الزرقاوان إلي الجنود للإستعداد للإصطفاف مخبراً إياهم بأن الأغا خارجُ إليهم.

ما هي إلا بضعة دقائق حتي غسل القائد الهمام وجهه بماء الورد، و ارتدي بزته علي أكمل وجه، و أوصد دموعه في أحد أدراج مكتبه، و أغمد السيف اللامع في مكمنه، و أزف جسده بالعطر الرائع، ثم خرج إليهم و وجهه أبيضاً مضيئاً،

وعيناه الخضراوين تزينان وجهه، و كل شئ فيه مهندماً كما لو أنه صمم لأجله.

ألقى نظرةً عامة علي انضباطهم في الإصطفاف، و إلي ملابسهم، ثم تفقد الدوريات هل أطلقت في مواعيدها؟،

وهل تبركوا بالحاج بكتاش أم لا و من المتخلف فيهم؟ و الأموال المجموعة من الضرائب و من المتعسر؟، و حالة السير العام في البلاد هل هي حقًا علي ما يرام؟ ثم بعد أن استوفي كل ذلك، حتي اختار منهم أربعة من أكفأ الجنود ليرافقوه إلي ذلك الحدث الهام، و دعا الباقون إلي الإنصراف و أعطي نصفهم راحة، و النصف الآخر لتبادل الخدمات

والحراسة علي مدار اليوم، ثم امتطي حصانه و هم من خلفه علي أحصنتهم و سار الفرسان الأشاوس إلي طريق الفخامة و العظمة.

- سيدي السلطان المفدى، يستأذنك أغا الإنكشارية سيد قاسم في الدخول عليك، فهل تأذن له سيدي ؟

- يشير إليه السلطان بالموافقة.

يجلس السطان الشاب علي كرسي العرش وطاولة الإجتماع أسفل قدميه يجلس عليها رجال الدين وكبار الموظفين،

و جلس – بعد الإنحناء تحية له - في المقابل الأغا قاسم و جلس علي الأربعة مقاعد الفارغة أكفأ الجنود و هم:

حميد ، و كمال ، و موسى ، و محرم.

بهو القاعة التي يجلس فيها السلطان كفيلة بأن تجعلك تذوب في عبق الإنبهار، الألوان البراقة في كل مكان، والفواكة المرصوصة في كل جانب، وأباريق المياة، و رائحة المسك المنتشرة، و النجف الأنيق، و الزركشة الإسلامية البديعة، وكأنك في بحر من الآلئ تغرق فيه فيقبلك ويدغدغ كيانك من السعادة.

بدأ شيخ الإسلام قائلاً :

بسم الله والصلاة والسلام علي رسول الله، آخر الأنبياء و سيد الأمة، أما بعد..

إننا نجتمع اليوم سيد قاسم لكي نهتدى علي طريقٍ سواء، لقد مرت ثمانية عشر عام سيد قاسم و ما زلنا علي هذا الحال، أما نذكر جميعاً قوله تعالي:

"واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً

وكنتم علي شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون" .

ثم أردف :

أما آن لنا الآوان أن نحسم خلاف هذه المسألة سيد قاسم؟

- ينظر قاسم نظرة كراهية إلي السلطان الشاب جاحظ العينين ثم قال:

لا أعلم شيخي ماذا أقول لك، أألوم أورخان غازي علي ما فعله بنا؟ أم ألوم مصيرنا المحتوم!

- تدب البلبلة بين الحضور حتي أسكتهم صوت شيخ الإسلام قائلاً و هو مذهول:

و ماذا فعل بكم أورخان غازي يا قاسم؟ لقد كنتم مضلين ضالين فأنقذكم من النار والكفر المبين، لقد هداكم من عبادة العباد إلي عبادة رب العباد، إن كانت الأرض تتكلم لشكرته علي ما فعل بكم، فهل هذا جزاء المعروف سيد قاسم؟

و ماذا تقولون في ذلك أيها الفرسان؟

- ينظر إليهم السلطان الشاب في دهاء بينما هم جلوس لا ينطقون.

- يقول قاسم و عيناه تغرورق بالدموع :

لقد كان أرحم لنا أن يقتلنا بتلك السيوف (مشيراً إلي السيوف الملكية المعلقة علي الحائط) علي أن نعيش لا نعلم هل نحن مسلمون أم مسيحيون، إننا بلا هوية يا شيخ الإسلام فهل تفهم ذلك، هل تدرك كيف أن فؤادك الذي بين أضلاعك يميل به الحنين

تارةً إلي فلسفة الإسلام و تارة إلي فداء المسيح!!

- ينزعج شيخ الإسلام و تزداد دقات قلبه ثم يقول:

إن كلامك يا قاسم يشوبه الكفر ،، استعيذ بالله يا بني إنه الشيطان ليس إلا، لقد حججت أنت و فرقتك كاملة علي مدار أعوام كثيرة مضت، لقد كفر الله ذنوبكم الماضية، و أعدك يا بني بأنني سأستسمح لكم صاحب الفخامة سلطاننا لكي يسمح لكم بالذهاب مرة أخري حتي تكفر عن هذا الكلام، و أبشرك خيراً بأن الله سيقبل توبتك عن هذا اللغو...

- قاطعه السلطان الشاب محمود قائلاً :

ثمانية عشرة عاماً يا قاسم و نحن نصبر عليكم، و لكن الأمر الآن بات مريراً، لابد أن تقبلوا بالتطوير و الإلتزام، و تكفوا عن الفساد في الأرض. إننا نقدر جهودكم العظيمة علي مدى تاريخ الإمبراطورية في إذعان رقاب الكفر إلي كلمة الله، و بسالة القتال، و شهداؤكم فوق الرؤوس جمعاء، و لكن الأمر الراهن هو لمصلحة الإمبراطورية التي أمرها أهم من مصلحة الفرد أو المصلحة الشخصية.

- يسكت قليلاً قاسم الذي استشاط غضباً ثم قال :

إننا لن نقبل بهيمنة أوروبية علينا، نحن ملوك السيوف، لقد ارتوت بدماءنا علي مر الأزمنة، خسرنا أشرف الرجال

وأطهر الأصدقاء من أجل الإمبراطورية، نحن من نفرض كلمتنا لا أن تفرض علينا أوامر أوروبا أو غيرها.

- و لكن هذا التحديث يخدم مصلحة القتال و يعزز من كفاءتكم و يجعل الإمبراطورية تنتفع منكم بصورة أفضل، أما رأيت محمد علي في مصر؟

- إن مصر نقطة في بحر الإمبراطورية نجاحها أو فشلها أمر لا يؤثر علينا، و لكن فشل

الإمبراطورية أو خضوعها لهيمنة أوروبا يبقينا أذلة و يضيع من أيدينا كل الممالك التي بحوزتنا.

- يصر السلطان علي موقفه:

و نحن لا بديل لدينا عن التطوير الأوروبي. ليس هذا فحسب بل و ستكفون من اليوم عن جمع أي ضرائب أو أموال بصورة غير شرعية من العامة. ثم أضاف ساخراً:

و كما قلت لشيخ الإسلام أنك تحن لأصولك المسيحية ،، فها هو التحديث يناديكم .. فقم و لبي نداء أجدادك و آباءك.

ثم أغرق في الضحك هو و الحضور عدا شيخ الإسلام الذي أخذ يستغفر الله، بينما قاسم و من معه جزوا علي أسنانهم،

ولكن وراء كل منهم حرس خاص شاهر سيفه لأي محاولة غادرة.

قاسم في عنادٍ شديد :

أنت و أورخان غازي وجهان لعملة واحدة محمود، إننا منصرفون، ولا شأن بهيمنة أوروبا علينا و سنرفض كل ما تأتونا به إلينا ، فإما أن ينبع التحديث منا و إما فلا، فعندما كنا نحرز لكم الإنتصارات و فتحنا لكم الممالك، و كسرنا أعناق أوروبا و من حولها، لم نكن وقتها نحتاج لمن يعلمنا شئون القتال أو يلبسنا زي العار الذي تريدونا أن نرتديه.

إننا منصرفون أيها السلطان. فقاموا من أماكنهم فأشهر الجنود من وراءهم السيوف علي أعناقهم، فنظر السلطان في عيني قاسم نظرة طويلة ثم أمر الحراس بأن يتركوهم.

- دوي طرقات شديدة تكاد أن تخلع الباب من مكانه و صرخات من الخارج :

قاسم .. الأمر جلل افتح يا قاسم.

قاسم الذي كان ماكثًا في غرفته بيده اليمني قلادة مكتوب عليها الشهادة و في يده الآخرى صليب، انفصل من تأمله

وأخفاهما بسرعة في جيب بزته الداخلية، و ما أن فتح حتي انطلق طوفان الخوف في وجه حميد (الذي تسارعت أنفاسه) قائلاً:

لقد أخذ كمال و موسي و محرم الفرقة و قادوها إلي تمرد عام، و الإمبراطورية تشتعل بالحرائق في كل مكان، السرايا،

والأبنية، كل شئ يحترق و الناس تموت إما إختناقاً وإما احتراقاً .. ثم ركع علي ركبتيه متوسلاً:

أرجوك يا قاسم افعل شيئاً.

أهدأه قاسم قائلاً:

لا تقلق أنا من أعطيتهم الأمر، هذا لإخضاع السلطان ليس إلا .. قل لي يا حميد أيهما أقدر علي البقاء آله المسلمون الذي جعلونا نعتنق دينه بالقوة أم أبانا الذي في السماوات؟

- حميد في جنون:

هل جُننت يا قاسم، أقول لك إن الناس تموت بالخارج والإمبراطورية تنهار وأنت لا تعرف من رب السماوات والأرض؟

- إنني سأعتنق دين آبائي وأجدادي يا حميد.

- حميد يهزه هزًا عنيفًا و هو يبكي:

الناس تموت بالخارج و أنت هنا تعبث مع الله و تتنكر من الإسلام. إن الله اصطفانا بالإسلام فهل نقبل الكفر بعد الإيمان يا قاسم؟ ما الذي أصابك بالله عليك؟

يسقطا الاثنان أرضاً من دوي تشقق الأرض حولهم، وما هي إلا لحظات حتى اقتحم قائد أحد ألوية المدفعية ومعه جنوده الغرفة عليهم قائلاً:

لقد انتهيتم جميعاً يا قاسم و مات ستة آلاف من فرقتك، وهذا بناءً علي فتوى شيخ

الإسلام بتكفيركم و أمر السلطان المفدى. لقد كفرتم بعد إيمانكم يا قاسم.

- حميد مصعوقاً :

ما هذا الذي تقول يا مراد؟ إننا لم نكفر ولم نضل السبيل.

- وماذا تسمي المباني التي أحرقت والبيوت التي هدمت و الأبرياء الذين قتلوا بنيرانكم منذ الصباح الباكر؟

- قاسم في يأس و مرارة :

إنها النار نفسها التي أُشعلت في صدور آباءنا وأمهاتنا يا مراد.

- مراد آمراً جنوده بالتصويب إلي رؤوسهم:

إنها فلسفة الإلحاد يا كفار.

ثم أطلق النيران علي رؤوسهم، ثم باعد بين أصابع قاسم ليرى ماذا كان قابضاً بيديه فوجد قلادة مكتوب عليها الشهادة متداخلة مع قلادة أخرى عليها الصليب.

فاستخلص مراد قلادة الشهادة وترك الأخرى وأقفلها علي يد قاسم مرة أخرى وقال له وهو مغادراً:

"ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه" وكذلك لا يجتمع دينان في قلبٍ واحد أيها الأغا. ثم نزع راية التوحيد من علي الحائط، وأخذ المصحف من علي حامله، و خرج مع جنوده وتبخروا في طرب المدفعية.



المحتويات

القصة	الصفحة

القصة	الصفحة



أسرار ولكن

كما عودتنا أسرار الكتب نعود إليكم مره أخري ومجموعه من أفضل القصص لكتاب موهوبين، منهم من قدم أوراق إعتماده للجمهور من قبل في صورة ورقية، ومنهم من لا يزال يخطوا أولي خطواته بداخل حقل الكتابة..

كان الإختيار صعبًا حتى أفرزنا تلك السطور الموهوبة..

هم يستحقون المتابعة..

فتعالوا معنا نصحبكم ف قراءة

(أسرار ولكن)

عمرو مرزوق





مجموعة قصصية

أسرار ولكن

المثقفون العرب للنشر والتوزيع